

مختارات من إحياء علوم الدين

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فهذه مختارات من كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ونفعنا به، جُمِعت في هذا المصنف من خلال التقييدات الموجودة على هوامش نسخة شيخنا سيدي الشيخ أحمد فتح الله جامي حفظه الله تعالى وأمتع به، وجزاه الله تعالى عنا وعن المسلمين خير الجزاء، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بها والمسلمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم، والحمد لله رب العالمين.

** ** **

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من الجزء الأول:

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٢٥) (١/١٦٣)

١ـ مراتب الورع:

وأما الحلال والحرام؛ فالورعُ عن الحرام من الدين، **ولكن الورع له أربع مراتب:**

الأولى: الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة، وهو الذي يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية، وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر.

الثانية: ورع الصالحين، وهو التوقِّي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات. قال صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك إلى ما يريبك» [أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن حبان من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما]. وقال صلى الله عليه وسلم: «الإثم حزَّاز القلوب» [أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه العدني في مسنده موقوفاً عليه].

الثالثة: ورع المتقين، وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف معه أداؤه إلى الحرام. قال صلى الله عليه وسلم: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس» [أخرجه الترمذي وحسَّنه وابن ماجه والحاكم وصحَّحه من حديث عطية السعدي رضي الله عنه]؛ وذلك مثل التورُّع عن التحدُّث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة، والتورُّع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدي إلى مقارفة المحظورات.

الرابعة: ورع الصديقين، وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل، وإن كان يعلم ويتحقَّق أنه لا يفضي إلى حرام.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٢٩) (١/١٧١)

٢ـ الفلسفة:

وأما الفلسفة فليست علماً برأسها، **بل هي أربعة أجزاء:**

أحدها: الهندسة والحساب، وهما مباحان كما سبق، ولا يمنع عنهما إلا من يخاف

عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة ؛ فإن أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما إلى البدع ، فيصان الضعيف عنهما – لا لعينهما – كما يصان الصبي عن شاطئ النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر ، وكما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه ، مع أن القوي لا يندب إلى مخالطتهم.

الثاني: **المنطق**، وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ، ووجه لحدِّه وشروطه ، وهما داخلان في علم الكلام.

الثالث: **الإلهيات**، وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وهو داخل في الكلام أيضاً ، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة ، وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه ، بل أصحابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة.

والرابع: **الطبيعيات**، وبعضها مخالف للشرع والدين والحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى نورده في أقسام العلوم ، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصِّها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الأطباء ؛ إلا أن الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون في جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك ؛ ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه. وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها.

** ** **

إحياء علوم الدين (ج ١ / ص ٣١) (١٧٦/١)

٣ـ مناقب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

أما الإمام الشافعي رحمه الله فيدل على أنه كان عابداً ما روي أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء: ثلثاً للعلم ، وثلثاً للعبادة ، وثلثاً للنوم.

قال الربيع: كان الشافعي رحمه الله يختم القرآن في كلِّ رمضان ستين مرة ، كلُّ ذلك في الصلاة ، وكان البويطي أحد أصحابه يختم القرآن في رمضان في كلِّ يوم مرة.

وقال الحسن الكرابيسي: بِتُّ مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحواً من ثلث الليل ، فما رأيته يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فمائة آية ، وكان لا يمرُّ بآية رحمة إلا سأل الله

لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين، ولا يمرُّ بآية عذاب إلا تعوَّذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين، وكأنما جُمِع له الرجاء والخوف معاً. فانظر كيف يدلُّ اقتصاره على خمسين آية على تبحُّره في أسرار القرآن وتدبُّره فيها.

وقال الشافعي رحمه الله: ما شبعت منذ ست عشرة سنة؛ لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويُضعف صاحبه عن العبادة، فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشبع، ثم في جده في العبادة، إذ طرح الشبع لأجلها، ورأسُ التعبُّد تقليل الطعام.

وقال الشافعي رحمه الله: ما حلفت بالله تعالى لا صادقاً ولا كاذباً قط، فانظر إلى حرمته وتوقيره لله تعالى، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه.

وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى أدري الفضل في سكوتي أو في جوابي، فانظر في مراقبته للسانه مع أنه أشدُّ الأعضاء تسلُّطاً على الفقهاء، وأعصاها على الضبط والقهر، وبه يستبين أنه كان لا يتكلَّم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب.

وقال أحمد بن يحيى بن الوزير: خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوماً من سوق القناديل فتبعناه، فإذا رجل يسفِّه على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعي إلينا وقال: نزِّهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزِّهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يُفرغه في أوعيتكم، ولو رُدَّت كلمة السفيه لسعد رادُّها كما شقي بها قائلها.

وقال الشافعي رضي الله عنه: كتب حكيم إلى حكيم: قد أوتيت علماً فلا تدنِّس علمك بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

وأما زهده رضي الله عنه؛ فقد قال الشافعي رحمه الله: من ادعى أنه جمع بين حبِّ الدنيا وحبِّ خالقها في قلبه فقد كذب.

وقال الحميدي: خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة، فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم، فضرب له خباء في موضع خارجاً من مكة، فكان الناس يأتونه، فما برح من موضعه ذلك حتى فرقها كلَّها. وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامي مالاً كثيراً، وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان إليه، فأعطاه جزاء عليه خمسين ديناراً.

وسخاوة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تُحكى. ورأس الزهد السخاء؛ لأن من أحب شيئاً أمسكه ولم يفارقه، فلا يفرِّق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه، وهو معنى الزهد.

ويدلُّ على قوة زهده، وشدة خوفه من الله تعالى، واشتغال همته بالآخرة، ما روي أنه روى سفيان بن عيينة حديثاً في الرقائق، فغشي على الشافعي، فقيل له: قد مات، فقال: إن مات فقد مات أفضل أهل زمانه. وما روى عبد الله بن محمد البلوي قال: كنت أنا وعمر بن نباتة جلوساً نتذاكر العُبَّاد والزُّهَّاد، فقال لي عمر: ما رأيت أورع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا، وكان الحارث تلميذاً لصالح المري، فافتتح الحارث يقرأ وكان حسن الصوت، فقرأ هذه الآية عليه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦] فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغيَّر لونه، واقشعرَّ جلده، واضطرب اضطراباً شديداً، وخرَّ مغشياً عليه، فلما أفاق جعل يقول: أعوذ بك من مقام الكاذبين، وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين، وذلَّت لك رقاب المشتاقين، إلهي هب لي جودك، وجلِّلْني بسترك، واعف عن تقصيري بكرم وجهك، قال: ثم مشى وانصرفنا، فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق، فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة، إذ مرَّ بي رجل فقال لي: يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة، فالتفتُّ فإذا أنا برجل يتبعه جماعة، فأسرعت في وضوئي وجعلت أقفو أثره، فالتفت إلي فقال: هل لك من حاجة؟ فقلت: نعم تعلِّمني مما علمك الله شيئاً، فقال لي: اعلم أن من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرَّت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غداً، ألا أزيدك؟ قلت: نعم، قال: من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان: من أمر بالمعروف وائتمر، ونهى عن المنكر وانتهى، وحافظ على حدود الله تعالى، ألا أزيدك؟ قلت: بلى، فقال: كن في الدنيا زاهداً، وفي الآخرة راغباً، واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين. ثم مضى، فسألت: من هذا؟ فقالوا: هو الشافعي. فانظر إلى سقوطه مغشياً عليه، ثم إلى وعظه كيف يدلُّ ذلك على زهده وغاية خوفه، ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل، فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] ولم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه، بل هو من

علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار، إذ حِكَم الأولين والآخرين مودَعة فيهما.

وأما كونه عالماً بأسرار القلب وعلوم الآخرة، فتعرفه من الحكم المأثورة عنه.

روي أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة: الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء، فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس، فأحبطت أعمالهم.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب؟ وفي أي ثواب ترغب؟ ومن أي عقاب ترهب؟ وأي عافية تشكر؟ وأي بلاء تذكر؟ فإنك إذا تفكرت في واحد من هذه الخصال صغر في عينك عملك. فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب.

وقال الشافعي رضي الله عنه: من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

وقال رحمه الله: من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره.

وقال: ما من أحد إلا له محب ومبغض، فإذا كان كذلك فكن من أهل طاعة الله عز وجل.

وروي أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً، وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع، والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه، وقال للشافعي يوماً: أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال الشافعي رحمه الله: التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتُحن صبر، وإذا صبر مُكِّن، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مَكَّنه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مَكَّنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مَكَّنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مَكَّنه وآتاه ملكاً؟ والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]، وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مُكِّن، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤] الآية. فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدلُّ على تبحُّره في أسرار القرآن، واطِّلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء، وكلُّ ذلك من علوم الآخرة.

وقيل للشافعي رحمه الله: متى يكون الرجل عالماً؟ قال: إذا تحقق في علم الدين فعلمه، وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته، فعند ذلك يكون عالماً، فإنه قيل لجالينوس: إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجتمعة؟ فقال: إنما المقصود منها واحد، وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدته، لأن الإفراد قاتل. فهذا وأمثاله مما لا يُحصى يدلُّ على علوِّ

رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة.

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجهَ الله تعالى، فيدل عليه ما روي عنه أنه قال: وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إليَّ شيء منه. فانظر كيف اطَّلع على آفة العلم وطلب الاسم له، وكيف كان منزَّه القلب عن الالتفات إليه، مجرَّدَ النية فيه لوجه الله تعالى.

وقال الشافعي رضي الله عنه: ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ.

وقال: ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفَّق ويُسدَّد ويعان، ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله الحقَّ على لساني أو على لسانه.

وقال: ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته، واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته. فهذه العلامات هي التي تدلُّ على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة، فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط، ثم كيف خالفوه فيها أيضاً، ولهذا قال أبو ثور رحمه الله: ما رأيت ولا رأى الراؤون مثلَ الشافعي رحمه الله تعالى.

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى. فانظر إلى إنصاف الداعي، وإلى درجة المدعوِّ له، وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار، وما بينهم من المشاحنة والبغضاء، لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء. ولكثرة دعائه له قال له ابنه: أيّ رجل كان الشافعي حتى تدعو له كلَّ هذا الدعاء؟ فقال أحمد: يا بني، كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف؟

وكان أحمد رحمه الله يقول: ما مسَّ أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه مِنَّة.

وقال يحيى بن سعيد القطان: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي، لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسداد فيه. ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله فإن ذلك خارج عن الحصر، وأكثر هذه المناقب نقلناه من الكتاب الذي صنَّفه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٦٧) (٢٥٧/١)

٤ـ قصة رجل كان يخدم سيدنا موسى عليه السلام:

وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد. فقال عز وجل في علماء الدنيا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال تعالى في علماء الآخرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

... روي أن رجلاً كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول: حدثني موسى صفي الله، حدثني موسى نجيُّ الله، حدثني موسى كليم الله، حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موسى عليه السلام، فجعل يسأل عنه ولا يحسُّ له خبراً، حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير، وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم، قال: هو هذا الخنزير، فقال موسى: يا رب أسألك أن تردَّه إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٧٠) (٢٦٧/١)

٥ـ ما روي عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخي:

بل ينبغي أن يكون المتعلِّم من جنس ما روي عن حاتم الأصم - تلميذ شقيق البلخي رضي الله عنهما - أنه قال له شقيق: منذ كم صحبتني؟ قال حاتم: منذ ثلاث وثلاثين سنة، قال: فما تعلمت مني في هذه المدة؟ قال: ثماني مسائل، قال شقيق له: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثماني مسائل؟ قال: يا أستاذ لم أتعلَّم غيرها وإني لا أحبُّ أن أكذب، فقال: هات هذه الثماني مسائل حتى أسمعها.

قال حاتم: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلَّ واحد يحبُّ محبوباً، فهو مع محبوبه إلى

القبر، فإذا وصل إلى القبر فارقه، فجعلت الحسنات محبوبي، فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي. فقال: أحسنت يا حاتم فما **الثانية**؟

فقال: نظرت في قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق، فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرَّت على طاعة الله تعالى.

الثالثة: أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلَّ من معه شيء له قيمة ومقدارٌ رفعه وحفظه، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجَّهته إلى الله ليبقى عنده محفوظاً.

الرابعة: أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلَّ واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء، ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً.

الخامسة: أني نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضاً، وأصل هذا كلِّه الحسد، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢] فتركت الحسد واجتنبت الخلق، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى، فتركت عداوة الخلق عني.

السادسة: نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً، فرجعت إلى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فعاديته وحده، واجتهدت في أخذ حذري منه، لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدوٌّ لي، فتركت عداوة الخلق غيره.

السابعة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كلَّ واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذلُّ فيها نفسه، ويدخل فيما لا يحلُّ له، ثم نظرت إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها، فاشتغلت بما لله تعالى عليَّ، وتركت ما لي عنده.

الثامنة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلَّهم متوكِّلين على مخلوق، هذا على ضيعته،

وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وهذا على صحة بدنه، وكلُّ مخلوق متوكِّل على مخلوق مثله، فرجعت إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] فتوكَّلت على الله عز وجل فهو حسبي.

قال شقيق: يا حاتم وفقك الله تعالى، فإني نظرت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم، فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه الثمان مسائل، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة، فهذا الفن من العلم لا يهتمُّ بإدراكه والتفطُّن له إلا علماء الآخرة، فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسَّر به اكتساب المال والجاه، ويهملون أمثال هذه العلوم التي بعث الله بها الأنبياء كلهم عليهم السلام.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٧٨) (٢٨٣/١)

٦ـ العناية بتقوية اليقين وتفصيله:

ومنها: أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين، فإن اليقين هو رأس مال الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اليقين الإيمان كله» [أخرجه البيهقي في الزهد، والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد حسن] فلا بدُّ من تعلم علم اليقين، أعني أوائله، ثم ينفتح للقلب طريقه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «تعلموا اليقين» [أخرجه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلاً، وهو معضل، رواه ابن أبي الدنيا في اليقين من قول خالد بن معدان] ومعناه: جالسوا الموقنين، واستمعوا منهم علم اليقين، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوي يقينهم، وقليل من اليقين خير من كثير من العمل.

وقال صلى الله عليه وسلم لما قيل له: رجل حسن اليقين كثير الذنوب، ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين، فقال: «ما من آدمي إلا وله ذنوب، ولكن من كان غريزته العقل، وسجيته اليقين، لم تضرَّه الذنوب، لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم، فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة» [أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أنس رضي الله عنه بإسناد مظلم] ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «إن من أقلِّ ما أوتيتم اليقينَ وعزيمة الصبر، ومن أُعطي

حظَّه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار» [لم أقف له على أصل. وروى ابن عبد البرِّ من حديث معاذ ﷺ: «ما أنزل الله شيئاً أقلَّ من اليقين، ولا قسم شيئاً بين الناس أقلَّ من الحلم].

وفي وصية لقمان لابنه: يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه. وقال يحيى بن معاذ: إن للتوحيد نوراً، وللشرك ناراً، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين، وأراد به اليقين. وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دلَّ بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات.

فإن قلت: فما معنى اليقين؟ وما معنى قوته وضعفه؟ فلا بد من فهمه أولاً، ثم الاشتغال بطلبه وتعلُّمه، فإن ما لا تُفهم صورته لا يمكن طلبه؟

فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين؛ **أما النُّظَّار والمتكلمون** فيعبِّرون به عن عدم الشك، إذ ميل النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقامات:

الأول: أن يعتدل التصديق والتكذيب، ويعبر عنه بالشك، كما إذا سئلت عن شخص معين، أن الله تعالى يعاقبه أم لا؟ وهو مجهول الحال عندك، فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفي، بل يستوي عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكاً.

الثاني: أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين، مع الشعور بإمكان نقيضه، ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب، وذلك لظهور علامات الصلاح؛ ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمر موجب للعقاب في باطنه وسريرته، فهذا التجويز مساوٍ لذلك الميل، ولكنه غير دافع رجحانه، فهذه الحالة تسمى ظناً.

الثالث: أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها، ولا يخطر بالبال غيره، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله، ولكن ليس ذلك مع معرفة محقَّقة، إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمُّل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز، وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين، وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلِّها، إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع، حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله.

الرابع: المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يُشكُّ فيه، ولا يُتصور الشك فيه، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء، ومثاله: أنه إذا قيل للعاقل: هل في الوجود شيء هو قديم؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة، لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر، فإنه يصدق بوجودهما بالحس، وليس العلم بوجود شيء قديم أولياً ضرورياً مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، فإن هذا أيضاً ضروري، فحقُّ غريزة العقل أن تتوقَّف عن التصديق بوجود القديم على الارتجال والبديهة، ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقاً جزماً، ويستمر عليه، وذلك هو الاعتقاد، وهو حال جميع العوام. ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له: إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة، فإن كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب، أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال، فالمؤدي إلى المحال محال، فيلزم في العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة، لأن الأقسام ثلاثة: وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة، أو كلها حادثة، أو بعضها قديمة وبعضها حادثة؛ فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب، إذ ثبت على الجملة قديم، وإن كان الكل حادثاً فهو محال، إذ يؤدي إلى حدوث بغير سبب، فيثبت القسم الثالث أو الأول. وكلُّ علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً عند هؤلاء، سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه، أو حصل بحس، أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر، كالعلم بوجود مكة، أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل، أو بدليل كما ذكرنا، فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك، فكلُّ علم لا شك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء، وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف، إذ لا تفاوت في نفي الشك.

الاصطلاح الثاني: **اصطلاح الفقهاء والمتصوِّفة وأكثر العلماء**، وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك، بل إلى استيلائه وغلبته على العقل، حتى يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه؛ ويقال: فلان قوي اليقين في إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه، فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيء، وغلب ذلك على القلب واستولى، حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجويز والمنع، سمي ذلك

يقيناً، ولا شك في أن الناس يشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به. ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همِّه بالاستعداد له، ولم يغادر فيه متسعاً لغيره، فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين، ولذلك قال بعضهم: ما رأيت يقيناً لا شكَّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقين فيه من الموت. وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة، ونحن إنما أردنا بقولنا: "إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين" بالمعنيين جميعاً، وهو نفي الشك، ثم تسليط اليقين على النفس، حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها.

فإذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا: إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام: بالقوة والضعف، والكثرة والقلة، والخفاء والجلاء؛ فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثاني، وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب، ودرجات معاني اليقين في القوة والضعف لا تتناهى، وتفاوت الخلق في الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني. وأما التفاوت بالخفاء والجلاء في الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضاً، أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر - أعني الاصطلاح الثاني - وفيما انتفى الشك أيضاً عنه لا سبيل إلى إنكاره، فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فدك مثلاً، وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام، مع أنك لا تشك في الأمرين جميعاً، فمستندهما جميعاً التواتر، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح في قلبك من الثاني، لأن السبب في أحدهما أقوى، وهو كثرة المخبرين، وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعروفة بالأدلة، فإنه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد، كوضوح ما لاح له بالأدلة الكثيرة، مع تساويهما في نفي الشك، وهذا قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال. وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلَّقات اليقين، كما يقال: فلان أكثر علماً من فلان، أي معلوماته أكثر، ولذلك قد يكون العالم قوي اليقين في جميع ما ورد الشرع به، وقد يكون قوي اليقين في بعضه.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٨٠) (١/٢٨٧)

٧ـ معنى متعلّقات اليقين ومجاريه:

فإن قلت: قد فهمت اليقين، وقوته وضعفه، وكثرته وقلته، وجلاءه وخفاءه، بمعنى نفي الشك، أو بمعنى الاستيلاء على القلب، فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه؟ وفيماذا يطلب اليقين؟ فإني ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه.

فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجاري اليقين، فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقة المعلومات التي وردت بها الشرائع، فلا مطمع في إحصائها، ولكني أشير إلى بعضها وهي أمهاتها.

فمن ذلك: التوحيد. وهو أن يرى الأشياء كلّها من مسبِّب الأسباب، ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط مسخَّرة لا حكم لها، فالمصدق بهذا موقن، فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين، فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم، ونزل الوسائط في قلبه منزلة القلم واليد في حق المنعم بالتوقيع، فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما، بل يراهما آلتين مسخَّرتين وواسطتين، فقد صار موقناً بالمعنى الثاني وهو الإشراف، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته، ومهما تحقَّق أن الشمس والنجوم والجمادات والنبات والحيوان وكل مخلوق فهي مسخرات بأمره حسب تسخير القلم في يد الكاتب، وأن القدرة الأزلية هي المصدر للكل، استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم، وصار موقناً بريئاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق، فهذا أحد أبواب اليقين.

ومن ذلك: الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] واليقين بأن ذلك يأتيه، وأن ما قُدِّر له سيساق إليه، ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجمِلاً في الطلب، ولم يشتدَّ حرصه وشرهه وتأسُّفه على ما فاته، وأثمر هذا اليقين أيضاً جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة.

ومن ذلك: أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وهو اليقين بالثواب والعقاب، حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع، ونسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك، فكما يحرص

على التحصيل للخبز طلباً للشبع فيحفظ قليله وكثيره، فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها، فكذلك يجتنب المعاصي قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها؛ فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين، أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات، والمبالغة في التقوى والتحرُّز عن كلِّ السيئات، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد، والتشمير أبلغ.

ومن ذلك؛ اليقين بأن الله تعالى مطَّلع عليك في كل حال، ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك، فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول، وهو عدم الشك، وأما بالمعنى الثاني ـ وهو المقصود ـ فهو عزيز يختص به الصدِّيقون، وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أحواله، كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه، فإنه لا يزال مطرقاً متأدباً في جميع أعماله، متماسكاً محترزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب، ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة، إذ يتحقق أن الله تعالى مطَّلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره، فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكائنة أشدَّ من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة، فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة، وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها، وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان، فاليقين هو الأصل والأساس، وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه، وسيأتي ذلك في ربع المنجيات إن شاء الله تعالى. وهذا القدر كاف في معنى اللفظ الآن.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٩٢) (٣١٤/١)

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

ولـذلك قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة ـ حيث وجدت الألسنة والأشخاص ـ إلى مُقِرٍّ وإلى جاحد، ولـذلك قـال تعـالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] معناه إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] أي كلُّ آدمي فطر على الإيمان بالله عز وجل، بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه، أعني أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك.

ثم لما كان الإيمان مركوزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين: إلى من أعرض فنسي وهم الكفار، وإلى من أجال خاطره فتذكَّر، فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها. ولذلك قال عز وجل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ٧] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] وتسمية هذا النمط تذكُّراً ليس ببعيد، فكأن التذكُّر ضربان: أحدهما: أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود. والآخر: أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٩٩) (١/٣٣٢)

٩ـ طريقة كشف الإيمان التقليدي، والكلام في ذمِّ الكلام والجدل وتحريمهما:

اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدَّم إلى الصبي في أول نشوِّه ليحفظه حفظاً، ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً؛ فابتداؤه الحفظ، ثم الفهم، ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به، وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان. فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوِّه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المجرَّد والتقليد المحض؟ نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غيرَ خالٍ عن نوع من الضعف في الابتداء، على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقي إليه، فلا بدَّ من تقوية وإثباته في نفس الصبي

والعامي حتى يترسَّخ ولا يتزلزل؛ وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيئاتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له، فيكون أول التلقين كإلقاء بذر في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له، حتى ينمو ذلك البذر يقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة، فإن ما يشوِّشه الجدل أكثر مما يمهده، وما يفسده أكثر مما يصلحه، بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها، وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب. والمشاهدة تكفيك في هذا بياناً، فناهيك بالعيان برهاناً؛ فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس، بعقيدة المتكلِّمين والمجادلين، فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحرِّكه الدواهي والصواعق، وعقيدة المتكلِّم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل في الهواء، تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا، إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقَّفه تقليداً كما تلقَّف نفس الاعتقاد تقليداً؛ إذ لا فرق في التقليد بين تعليم الدليل أو تعلم المدلول، فتلقين الدليل شيء، والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه.

ثم الصبي إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها، ولكنه يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق، إذ لم يكلِّف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد، فأما البحث والتفتيش وتكلُّف نظم الأدلة فلم يكلَّفوه أصلاً. وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة، وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل، ولازم التقوى، ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل إذ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقرَّبين، وإليه الإشارة بالسرِّ

الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث فضل به الخلق. وانكشاف ذلك السر ـ بل تلك الأسرار ـ له درجات بحسب درجات المجاهدة، ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفي الاستضاءة بنور اليقين، وذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم، إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة، وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ١٠٦) (١/٣٤٣)

١٠ـ من قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يناقض الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان:

... وإنما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه، ولكن إذا انجرَّ الكلام إلى تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بدَّ من كلام وجيز في حلِّه؛ فمن قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يناقض الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ١١٣) (١/٣٥٩)

١١ـ وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر، فإنه غير مؤد إلى المحال، فإن الرؤية نوع كشف وعلم:

الأصل التاسع: العلم بأنه تعالى ـ مع كونه منزَّهاً عن الصورة والمقدار، مقدَّساً عن الجهات والأقطار ـ مرئيٌّ بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار، لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ولا يُرى في الدنيا تصديقاً لقوله عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وليت شعري كيف عرف المعتزل من صفات ربِّ الأرباب ما جهله موسى عليه السلام؟ وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها

محالاً؟ ولعل الجهل بذوي البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم، وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤدٍّ إلى المحال، فإن الرؤية نوع كشف وعلم، إلا أنه أتمُّ وأوضح من العلم، فإذا جاز تعلُّق العلم به وليس في جهة، جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة، وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم، جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة، وكما جاز أن يُعلم من غير كيفية وصورة، جاز أن يُرى كذلك.

** ** **

إحياء علوم الدين – (ج ١ / ص ١١٦) (١/٣٦٦)

١٢ـ فإن قيل: كيف ينهى الله عما يريد، ويأمر بما لا يريد؟ والجواب عنه ما قاله الإمام رحمه الله تعالى:

إن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه، فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته؛ ومنه الشرُّ والخير، والنفع والضر، والإسلام والكفر، والعرفان والنكر، والفوز والخسران، والغواية والرشد، والطاعة والعصيان، والشرك والإيمان، لا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه، يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة: «ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»، وقول الله عز وجل: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣].

ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها، وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله، مع أنه عدو لله سبحانه، والجاري على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى، فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو رُدَّت إليها رياسة زعيم ضيعة لاستنكف منها؛ إذ لو كان ما يستمرُّ لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف

من زعامته وتبرَّأ عن ولايته. والمعصية هي الغالبة على الخلق، وكلُّ ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى، وهذا غاية الضعف والعجز، تعالى ربُّ الأرباب عن قول الظالمين علواً كبيراً. ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صحَّ أنها مرادة له.

فإن قيل: فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد؟

قلنا: الأمر غير الإرادة؛ ولذلك إذا ضرب السيد عبده، فعاتبه السلطان عليه، فاعتذر بتمرُّد عبده عليه، فكذَّبه السلطان، فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه، فقال له: أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان، فهو يأمره بما لا يريد امتثاله، ولو لم يكن أمراً لما كان عذره عند السلطان ممهداً، ولو كان مريداً لامتثاله لكان مريداً لهلاك نفسه وهو محال.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ١١٨) (١/٣٦٨)

١٣ـ فإن قيل: مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد، ثم سلط عليهم أسباب العذاب، كان ذلك قبحاً لا يليق بالحكمة؟

قلنا: القبح ما لا يوافق الغرض، حتى إنه قد يكون الشيء قبيحاً عند شخص حسناً عند غيره، إذا وافق غرضَ أحدهما دون الآخر، حتى يستقبح قتلَ الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه.

فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال، إذ لا غرض له، فلا يُتصور منه قُبح كما لا يتصور منه ظلم، إذ لا يتصور منه التصرُّف في ملك الغير.

وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال؟ وهل هذا إلا مجرد تشه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار؟ ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء، القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته، وهذا من أين يوجب رعاية الأصلح؟ وأما الحكيم منا يراعي الأصلح نظراً لنفسه، ليستفيد به في الدنيا ثناءً، وفي الآخرة ثواباً، أو يدفع به عن نفسه آفة، وكلُّ ذلك محال على الله سبحانه وتعالى.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ١١٨) (١/٣٦٨)

١٤ـ إن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بالشرع لا بالعقل:

الأصل الثامن: أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبةٌ بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل، خلافاً للمعتزلة؛ لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو؛ إما أن يوجبها لغير فائدة، وهو محال، فإن العقل لا يوجب العبث، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض، وذلك لا يخلو؛ إما أن يرجع إلى المعبود، وذلك محال في حقه تعالى، فإنه يتقدَّس عن الأغراض والفوائد، بل الكفر والإيمان والطاعة والعصيان في حقه تعالى سيان، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد، وهو أيضاً محال، لأنه لا غرض له في الحال، بل يتعب به وينصرف عن الشهوات لسببه، وليس في المآل إلا الثواب والعقاب. ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما، مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان، إذ ليس له إلى أحدهما ميل، ولا به لأحدهما اختصاص، وإنما عُرف تمييز ذلك بالشرع، ولقد زلَّ من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق، حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذُّذ بأحدهما دون الآخر.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ١١٩) (١/٣٧٢)

١٥ـ سؤال منكر ونكير، ووجوب التصديق به:

الأصل الثاني: سؤال منكر ونكير، وقد وردت به الأخبار، فيجب التصديق به، لأنه ممكن، إذ ليس يستدعي إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به فهمُ الخطاب، وذلك ممكن في نفسه، ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال له، فإن النائم ساكن بظاهره، ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحسُّ بتأثيره عند التنبُّه، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده، ومَنْ حولَهُ لا يسمعونه ولا يرونه ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ١٢٠) (١/٣٧٤)

١٦ـ الجنة والنار مخلوقتان، ولا يقال: لا فائدة في خلقهما قبل الجزاء:

الأصل السادس: أن الجنة والنار مخلوقتان، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ﴾ دليل على أنها مخلوقة، فيجب إجراؤه على الظاهر، إذ لا استحالة فيه، ولا يقال: لا فائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء؛ لأن الله تعالى ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ١٢١) (١/٣٧٧)

١٧ـ اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره، والجواب ما قاله الإمام رحمه الله تعالى:

مسألة: اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره، وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه، أو هو مرتبط به يلازمه؟ فقيل: إنهما شيء واحد، وقيل: إنهما شيئان لا يتواصلان، وقيل: إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر.

وقد أورد أبو طالب المكي في هذا كلاماً شديد الاضطراب كثير التطويل، فلنهجم الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل ما لا تحصيل له، فنقول: في هذا ثلاثة مباحث: بحث عن موجب اللفظين في اللغة، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة، والبحث الأول لغوي، والثاني تفسيري، والثالث فقهي شرعي.

البحث الأول: في موجب اللغة؛ والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدق، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد، وترك التمرد والإباء والعناد، وللتصديق محل خاص وهو القلب، واللسان ترجمان، وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح، فإن كل

تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود، وكذلك الاعتراف باللسان، وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح. فموجب اللغة أن الإسلام أعم، والإيمان أخص، فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام؛ فإذن كلُّ تصديق تسليم، وليس كل تسليم تصديقاً.

البحث الثاني: عن إطلاق الشرع؛ والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل.

أما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦] ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد، وقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس» [متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما]، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس [أخرجه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة وفد عبد القيس: «تدرون ما الإيمان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن تقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وتصوموا رمضان، وتحجوا البيت الحرام» والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج، وزاد: «وأن تؤتوا خمساً من المغنم»].

وأما الاختلاف فقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] ومعناه استسلمنا في الظاهر، فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلب فقط، وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره، فقال: فما الإسلام؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس» [أخرجاه من حديث أبي هريرة، ومسلم من حديث عمر دون ذكر "الحساب" فرواه البيهقي في البعث]، فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل. وفي الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم «أعطى رجلاً عطاء ولم يعط الآخر؛ فقال له سعد: يا رسول الله تركت فلاناً لم تعطه وهو مؤمن؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أو مسلم» فأعاد عليه، فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم» [أخرجاه بنحوه].

وأما التداخل فما روي أيضاً أنه سئل فقيل له: «أي الأعمال أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الإسلام، فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الإيمان»

[أخرجه أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عنبسة بالشطر الأخير: «قال رجل: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان» وإسناده صحيح]، وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة؛ لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، وأفضلها الذي بالقلب، وهو التصديق الذي يسمى إيماناً، والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز في اللغة.

أما الاختلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط، وهو موافق للغة، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً، وهو أيضاً موافق للغة، فإن التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم، فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه، فإن من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامساً، وإن لم يستغرق جميع بدنه، فإطلاق اسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان، وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث سعد: «أو مسلم» لأنه فضل أحدهما على الآخر، ويريد بالاختلاف تفاضل المسميين.

وأما التداخل فموافق أيضاً للغة في خصوص الإيمان، وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل في الإسلام، وهو التصديق بالقلب، وهو الذي عنيناه بالتداخل، وهو موافق للغة في خصوص الإيمان وعموم الإسلام للكل، وعلى هذا خرج قوله: «الإيمان» في جواب قول السائل: «أي الإسلام أفضل؟»؛ لأنه جعل الإيمان خصوصاً من الإسلام فأدخله فيه.

وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً، فإن كل ذلك تسليم، وكذا الإيمان، ويكون التصرف في الإيمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر في معناه، وهو جائز؛ لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته، وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح، فيصير بهذا القدر من التعيمم مرادفاً لاسم الإسلام ومطابقاً له، فلا يزيد عليه ولا ينقص؛ وعليه خرج قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

البحث الثالث: عن الحكم الشرعي. والإسلام والإيمان حكمان: أخروي ودنيوي. أما الأخروي فهو الإخراج من النار ومنع التخليد، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» [أخرجاه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الشفاعة، وفيه: «اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه...» الحديث، ولهما من حديث أنس: «فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة - أو خردلة - من إيمان» لفظ البخاري: «منهما» وله تعليقاً من حديث أنس: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان» وهو عندهما متصل بلفظ: «خير» مكان: «إيمان»]. وقد اختلفوا في أن هذا الحكم على ماذا يترتب؟ وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو؟ فمن قائل: إنه مجرد العقد. ومن قائل يقول: إنه عقد بالقلب، وشهادة باللسان. ومن قائل يزيد ثالثاً وهو العمل بالأركان، ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول: من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف في أن مستقره الجنة، **وهذه درجة**.

الدرجة الثانية: أن يوجد اثنان وبعض الثالث - وهو القول والعقد وبعض الأعمال - ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر؛ فعند هذا قالت المعتزلة: خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل في الكفر، بل اسمه فاسق، وهو على منزلة بين المنزلتين، وهو مخلد في النار؛ وهذا باطل كما سنذكره.

الدرجة الثالثة: أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح، وقد اختلفوا في حكمه، فقال أبو طالب المكي: العمل بالجوارح من الإيمان، ولا يتم دونه، وادعى الإجماع فيه، واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] إذ هذا يدلُّ على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الإيمان، وإلا فيكون العمل في حكم المعاد؛ والعجب أنه ادعى الإجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يكفر أحد إلا بعد جحوده لما أقر به» [أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «لن يخرج أحد من الإيمان إلا بجحود ما دخل فيه» وإسناده ضعيف] وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر؛ والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة؛ إذ يقال له: من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال، فهل هو في الجنة؟ فلا بد أن يقول: نعم، وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل، فنزيد ونقول: لو بقي حياً حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات، أو زنى ثم مات، فهل يخلد في

النار؟ فإن قال: نعم، فهو مراد المعتزلة، وإن قال: لا، فهو تصريح بأن العمل ليس ركناً من نفس الإيمان، ولا شرطاً في وجوده، ولا في استحقاق الجنة به، وإن قال: أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلي ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية، فنقول: فما ضبط تلك المدة؟ وما عدد تلك الطاعات التي بتركها يبطل الإيمان؟ وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل الإيمان؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره، ولم يصر إليه صائر أصلاً.

الدرجة الرابعة: أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال، ومات، فهل نقول: مات مؤمناً بينه وبين الله تعالى؟ وهذا مما اختلف فيه، ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول: هذا مات قبل الإيمان، وهو فاسد؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان»، وهذا قلبه طافح بالإيمان، فكيف يخلد في النار؟ ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق.

الدرجة الخامسة: أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمتي الشهادة، وعلم وجوبها، ولكنه لم ينطق بها، فيحتمل أن يجعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة، ونقول: هو مؤمن غير مخلد في النار، والإيمان هو التصديق المحض، واللسان ترجمان الإيمان، فلا بد أن يكون الإيمان موجوداً بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان، وهذا هو الأظهر؛ إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ، ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة» ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب، كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب. وقال قائلون: القول ركن، إذ ليس كلمتا الشهادة إخباراً عن القلب، بل هو إنشاء عقد آخر، وابتداء شهادة والتزام، والأول أظهر، وقد غلا في هذا طائفة المرجئة فقالوا: هذا لا يدخل النار أصلاً، وقالوا: إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار، وسنبطل ذلك عليهم.

الدرجة السادسة: أن يقول بلسانه: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ولكن لم يصدق بقلبه، فلا نشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار، وأنه مخلَّد في النار، ولا نشك في أنه في حكم الدنيا ـ الذي يتعلق بالأئمة والولاة ـ من المسلمين، لأن قلبه لا يطلع

عليه، وعلينا أن نظن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطو عليه في قلبه، وإنما نشك في أمر ثالث، وهو الحكم الدنيوي فيما بينه وبين الله تعالى، وذلك بأن يموت له في الحال قريب مسلم، ثم يصدق بعد ذلك بقلبه، ثم يستفتي ويقول: كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت، والميراث الآن في يدي، فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه، هل تلزمه إعادة النكاح؟ هذا محل نظر، فيحتمل أن يقال: أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهراً وباطناً، ويحتمل أن يقال: تناط بالظاهر في حق غيره، لأن باطنه غير ظاهر لغيره، وباطنه ظاهر له في نفسه بينه وبين الله تعالى، والأظهر والعلم عند الله تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث، ويلزمه إعادة النكاح، ولذلك كان حذيفة رضي الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين، وعمر رضي الله عنه كان يراعي ذلك منه، فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضي الله عنه، والصلاة فعل ظاهر في الدنيا وإن كانت من العبادات، والتوقي عن الحرام أيضاً من جملة ما يجب لله كالصلاة، لقوله صلى الله عليه وسلم: «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة» [أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بسند ضعيف] وليس هذا مناقضاً لقولنا: إن الإرث حكم الإسلام، وهو الاستسلام، بل الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن، وهذه مباحث فقهية ظنية تبنى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة، فلا ينبغي أن يظن القاصر في العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإيراده في فن الكلام الذي يطلب فيه القطع، فما أفلح من نظر إلى العادات والمراسم في العلوم.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ١٢٧) (١/٣٨٨)

١٨ـ فإن قلت: ما وجه قول السلف: (أنا مؤمن إن شاء الله)؟ والجواب ما قاله الإمام رحمه الله تعالى:

مسألة: فإن قلت: ما وجه قول السلف: **(أنا مؤمن إن شاء الله)**، والاستثناء شك، والشك في الإيمان كفر، وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه.

فقال سفيان الثوري رحمه الله: من قال: أنا مؤمن عند الله، فهو من الكذابين، ومن قال: أنا مؤمن حقاً، فهو بدعة، فكيف يكون كاذباً وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه، ومن كان مؤمناً في نفسه كان مؤمناً عند الله؟ كما أن من كان طويلاً وسخياً في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله، وكذا من كان مسروراً أو حزيناً أو سميعاً أو بصيراً، ولو قيل للإنسان: هل أنت حيوان؟ لم يحسن أن يقول: أنا حيوان إن شاء الله. ولما قال سفيان ذلك قيل له: فماذا نقول؟ قال: قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وأيُّ فرق بين أن يقول: آمنا بالله وما أنزل إلينا، وبين أن يقول: أنا مؤمن؟

وقيل للحسن: أمؤمن أنت؟ فقال: إن شاء الله، فقيل له: لم تستثني يا أبا سعيد في الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول: نعم فيقول الله سبحانه: كذبت يا حسن، فتحق علي الكلمة. وكان يقول: ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني وقال: اذهب لا قبلت لك عملاً؛ فأنا أعمل في غير معمل.

وقال إبراهيم بن أدهم: إذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل: لا إله إلا الله. وقال مرة: قل: أنا لا أشك في الإيمان، وسؤالك إياي بدعة.

وقيل لعلقمة: أمؤمن أنت؟ قال: أرجو إن شاء الله.

وقال الثوري: نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما ندري ما نحن عند الله تعالى؟ فما معنى هذه الاستثناءات؟

فالجواب: أن هذا الاستثناء صحيح، وله أربعة أوجه: وجهان مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان، ولكن في خاتمته أو كماله، ووجهان لا يستندان إلى الشك.

الوجه الأول - الذي لا يستند إلى معارضة الشك -: الاحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تزكية النفس، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النساء: ٥٠]. وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه، والإيمان من أعلى صفات المجد، والجزم به تزكية مطلقة، وصيغة الاستثناء كأنها نقل من عرف التزكية، كما يقال للإنسان: أنت طبيب أو فقيه أو مفسر؟ فيقول: نعم إن شاء الله، لا في معرض التشكيك، ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه، فالصيغة صيغة الترديد والتضعيف لنفس الخبر،

ومعناه التضعيف للازم من لوازم الخبر، وهو التزكية. وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء.

الوجه الثاني: التأدُّب بذكر الله تعالى في كل حال، وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه، فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه، بل قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وكان الله سبحانه عالماً بأنهم يدخلون لا محالة، وأنه شاءه، ولكن المقصود تعليمه ذلك، فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما كان يخبر عنه معلوماً كان أو مشكوكاً، حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» [أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ]، واللحوق بهم غير مشكوك فيه، ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به. وهذه الصيغة دالة عليه، حتى صار بعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمني، فإذا قيل لك: إن فلاناً يموت سريعاً، فتقول: إن شاء الله، فيفهم منه رغبتك لا تشكُّكك، وإذا قيل لك: فلان سيزول مرضه ويصح، فتقول: إن شاء الله، بمعنى الرغبة، فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة، وكذلك العدول إلى معنى التأدب لذكر الله تعالى كيف كان الأمر.

الوجه الثالث: مستنده الشك، ومعناه: أنا مؤمن حقاً إن شاء الله، إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] فانقسموا إلى قسمين، ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان، لا في أصله، وكل إنسان شاكٌّ في كمال إيمانه، وذلك ليس بكفر، والشك في كمال الإيمان حقٌّ من وجهين؛ أحدهما: من حيث إن النفاق يُزيل كمال الإيمان، وهو خفي لا تتحقق البراءة منه. والثاني: أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال؛ أما العمل فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فيكون الشك في هذا الصدق، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فشرط عشرين وصفاً كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد، ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] الآية، وقد قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: «الإيمان عريان ولباسه التقوى» الحديث [أخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه بإسناد ضعيف]، وقال صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون باباً، أدناها إماطة الأذى عن الطريق» [أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الإيمان بضع وسبعون» زاد مسلم في رواية: «وأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها» فذكره، ورواه بلفظ المصنف الترمذي وصححه] فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال، وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي فقوله صلى الله عليه وسلم: «أربع من كن فيه فهو منافق خالص، وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا خاصم فجر» وفي بعض الروايات: «وإذا عاهد غدر» [متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما] وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «القلوب أربعة: قلب أجرد وفيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد، فأي المادتين غلب عليه حكم له بها» [أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه] وفي لفظ آخر: «غلبت عليه ذهبت به»، وقال عليه السلام: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها» [أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه]، وفي حديث: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا» [أخرجه أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر رضي الله عنه، ولأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى رضي الله عنه]، وقال حذيفة رضي الله عنه: «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقاً إلى أن يموت، وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات» [أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة]. وقال بعض العلماء: أقرب الناس من النفاق من يرى أنه بريء من النفاق. وقال حذيفة: (المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذ ذاك يخفونه، وهم اليوم يظهرونه) [أخرجه البخاري إلا أنه قال: «شر» بدل «أكثر»]، وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله، وهو خفي، وأبعد الناس منه من يتخوَّفه، وأقربهم منه من يرى أنه بريء منه، فقد قيل للحسن البصري: يقولون أن لا نفاق اليوم، فقال: يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق. وقال هو أو غيره: لو نبتت

للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا. وسمع ابن عمر رضي الله عنه رجلاً يتعرَّض للحجاج فقال: أرأيت لو كان حاضراً يسمع أكنت تتكلم فيه؟ فقال: لا، فقال: كنا نعدُّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [رواه أحمد والطبراني بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج]. وقال صلى الله عليه وسلم: «من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة» [أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب وأبو يعلى، ولفظه عند الطبراني: «وَمَنْ كانَ ذا لِسانَيْنِ فِي الدُّنْيا جَعَلَ اللهُ لَهُ لِسانَيْنِ مِنْ نارٍ يَوْمَ القِيامَةِ»]، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه» [متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ]. وقيل للحسن: إن قوماً يقولون: إنا لا نخاف النفاق، فقال: والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحبُّ إلي من تلاع الأرض ذهباً. وقال الحسن: إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب، والسر والعلانية، والمدخل والمخرج. وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه: إني أخاف أن أكون منافقاً، فقال: لو كنت منافقاً ما خفت النفاق، إن المنافق قد أمن من النفاق. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين ومائة – وفي رواية خمسين ومائة – من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون النفاق.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه، فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء، وقد علق نعله بيده، وبين عينيه أثر السجود، فقالوا: يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه، فقال صلى الله عليه وسلم: «أرى على وجهه سفعة من الشيطان»، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نشدتك الله هل حدَّثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك»؟ فقال: اللهم نعم [أخرجه أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس ﷺ]، فقال صلى الله عليه وسلم في دعائه: «اللهم إني أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم»، فقيل له: أتخاف يا رسول الله؟ فقال: «وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء»! [أخرجه مسلم من حديث عائشة: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل» ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل: «وشرِّ ما أعلم وشرِّ ما لا أعلم»]، وقد قال سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، قيل في التفسير: عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فكانت في كفة

السيئات. وقال سري السقطي: لو أن إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار، عليها من جميع الطيور، فخاطبه كل طير منها بلغة؛ فقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك، كان أسيراً في يديها. فهذه الأخبار والآثار تعرِّفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي، وأنه لا يؤمن منه، حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين؟ وقال أبو سليمان الداراني: سمعت من بعض الأمراء شيئاً فأردت أن أنكره، فخفت أن يأمر بقتلي، ولم أخف من الموت، ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزيُّن للخلق عند خروج روحي فكففت. وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله.

إحياء علوم الدين (ج١/ص١٢٩) (١/٣٩٤)

١٩ـ النفاق نفاقان:

فالنفاق نفاقان:

أحدهما: يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار. والثاني: يفضي بصاحبه إلى النار مدة، أو ينقص من درجات عليين، ويحط عن رتبة الصديقين، وذلك مشكوك فيه، ولذلك حسن الاستثناء فيه. وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية، والأمن من مكر الله، والعجب، وأمور أخر لا يخلو عنها إلا الصديقون.

الوجه الرابع: وهو أيضاً مستند إلى الشك، وذلك من خوف الخاتمة، فإنه لا يدري أيسلم له الإيمان عند الموت أم لا؟ فإن ختم له بالكفر حبط عمله السابق، لأنه موقوف على سلامة الآخر، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال: أنا صائم قطعاً، فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه، إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار، وكما أن النهار ميقات تمام الصوم، فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان، ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه، والعاقبة مخوفة، ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين، لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية التي لا تظهر إلا بظهور المقضي به ولا مطلع عليه لأحد من البشر، فخوف الخاتمة كخوف السابقة، وربما يظهر في الحال ما سبقت الكلمة بنقيضه، فمن الذي يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى؟ وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] أي بالسابقة،

يعني أظهرتها. وقال بعض السلف: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها.

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه.

وقيل: من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك.

وقيل: هي عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء.

وقال بعض العارفين: لو عرضت علي الشهادة عند باب الدار، والموت على التوحيد عند باب الحجرة، لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة، لأني لا أدري ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار؟

وقال بعضهم: لو عرفت واحداً بالتوحيد خمسين سنة، ثم حال بيني وبينه سارية، ومات، لم أحكم أنه مات على التوحيد.

وفي الحديث: «من قال: أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال: أنا عالم فهو جاهل» [أخرجه الطبراني في الأوسط بالشطر الأخير منه من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وفيه ليث بن أبي سليم تقدم، والشطر الأول روي من قول يحيى بن أبي كثير، رواه الطبراني في الأصغر بلفظ: «من قال: أنا في الجنة فهو في النار» وسنده ضعيف].

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] صدقاً لمن مات على الإيمان، وعدلاً لمن مات على الشرك، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] فمهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجباً؛ لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة، كما أن الصوم عبارة عما يبرئ الذمة، وما فسد قبل الغروب لا يبرئ الذمة فيخرج عن كونه صوماً، فكذلك الإيمان، بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضي الذي لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال: أصمت بالأمس؟ فيقول: نعم إن شاء الله تعالى، إذ الصوم الحقيقي هو المقبول، والمقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا الله تعالى، فمن هذا حسن الاستثناء في جميع أعمال البر، ويكون ذلك شكاً في القبول، إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسبابٌ خفيفة لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله، فيحسن الشك فيه. فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان، وهي آخر ما نختم به "كتاب قواعد العقائد" تم الكتاب بحمد الله تعالى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى.

** ** **

إحياء علوم الدين – (ج ١ / ص ١٢٤) (١/٣٨٣)

٢٠ـ الآيات والأحاديث الواردة في تعذيب العصاة من المؤمنين:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» [أخرجاه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الشفاعة...] فكيف يخرج إذا لم يدخل؟ ومن القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الجن: ٢٣] وتخصيصه بالكفر تحكم، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠]، فهذه العمومات في معارضة عموماتهم [أي المرجئة] ولا بدَّ من تسليط التخصص والتأويل على الجانبين؛ لأن الأخبار مصرِّحة بأن العصاة يعذبون، بل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] كالصريح في أن ذلك لا بد منه للكل، إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه، وقوله تعالى: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٥-١٦] أراد به من جماعة مخصوصين، أو أراد بالأشقى شخصاً معيناً أيضاً، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٨] أي فوج من الكفار، وتخصيص العمومات قريب.

** ** **

إحياء علوم الدين – (ج ١ / ص ١٤٨) (١/٤٣٩)

٢١ـ ما في اللحية من السنن والبدع:

... **الثامن:** ما طال من اللحية، وإنما أخرناها لنلحق بها ما في اللحية من السنن والبدع، إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها، وقد اختلفوا فيما طال منها؛ فقيل: إن قبض الرجل على لحيته، وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس، فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين، واستحسنه الشعبي وابن سيرين، وكرهه الحسن وقتادة، وقالا: تركها عافية أحب؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «أعفوا اللحى» [متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنه]، والأمر في هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب، فإن الطول المفرط قد يشوِّه

الخلقة، ويطلق ألسنة المغتابين بالنبذ إليه، فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية.

وقال النخعي: عجبت لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين، فإن التوسُّط في كلِّ شيء حسن، ولذلك قيل: كلما طالت اللحية تشمر العقل.

فصل

وفي اللحية عشر خصال مكروهة، وبعضها أشد كراهة من بعض: خضابها بالسواد، وتبييضها بالكبريت، ونتفها، ونتف الشيب منها، والنقصان منها، والزيادة فيها، وتسريحها تصنُّعاً لأجل الرياء، وتركها شعثة إظهاراً للزهد، والنظر إلى سوادها عجباً بالشباب، وإلى بياضها تكبُّراً بعلوِّ السن، وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبُّهاً بالصالحين.

أما الأول وهو الخضاب بالسواد، فهو منهي عنه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «خير شبابكم من تشبَّه بشيوخكم، وشرُّ شيوخكم من تشبَّه بشبابكم» [أخرجه الطبراني من حديث واثلة ﷺ بإسناد ضعيف] والمراد بالتشبُّه بالشيوخ في الوقار، لا في تبييض الشعر، و«نهى عن الخضاب بالسواد» [أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث عمرو بن العاص ﷺ بإسناد منقطع، ولمسلم من حديث جابر ﷺ: «وغيِّروا هذا بشيء واجتنبوا السواد» قاله حين رأى بياض شعر أبي قحافة ﷺ] وقال: «هو خضاب أهل النار» وفي لفظ آخر: «الخضاب بالسواد خضاب الكفار» [أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن عمر ﷺ بلفظ: «الكافر»؛ قال ابن أبي حاتم: منكر]. وتزوَّج رجل على عهد عمر رضي الله عنه، وكان يخضب بالسواد، فنصل خضابه وظهرت شيبته، فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضي الله عنه، فردَّ نكاحه وأوجعه ضرباً، وقال: غرَّرت القوم بالشباب ولبست عليهم شيبتك. ويقال: أول من خضب بالسواد فرعون لعنه الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة» [أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس ﷺ بإسناد جيد].

الثاني: الخضاب بالصفرة والحمرة، وهو جائز تلبيساً للشيب على الكفار في الغزو والجهاد، فإن لم يكن على هذه النية، بل للتشبُّه بأهل الدين، فهو مذموم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصفرة خضاب المسلمين، والحمرة خضاب المؤمنين» [أخرجه الطبراني والحاكم بلفظ الإفراد من حديث ابن عمر ﷺ؛ قال ابن أبي حاتم: منكر] وكانوا يخضبون

بالحناء للحمرة، وبالخلوق والكتم للصفرة، وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو، وذلك لا بأس به إذا صحت النية، ولم يكن فيه هوى وشهوة.

الثالث: تبييضها بالكبريت، استعجالاً لإظهار علوِّ السن توصُّلاً إلى التوقير، وقبول الشهادة، والتصديق بالرواية عن الشيوخ، وترفُّعاً عن الشباب، وإظهاراً لكثرة العلم، ظناً بأن كثرة الأيام تعطيه فضلاً، وهيهات، فلا يزيد كبرُ السنِّ الجاهلَ إلا جهلاً، فالعلم ثمرة العقل، وهي غريزة، ولا يؤثر الشيب فيها، ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته، وقد كان الشيوخ يقدِّمون الشباب بالعلم. كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدِّم ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو حديث السن ـ على أكابر الصحابة، ويسأله دونهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما آتى الله عز وجل عبداً علماً إلا شاباً، والخير كله في الشباب، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. وكان أنس رضي الله عنه يقول: «قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، فقيل له: يا أبا حمزة فقد أسنَّ، فقال: لم يشنه الله بالشيب، فقيل: أهو شَين؟ فقال: كلُّكم يكرهه» [متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه دون قوله: «فقيل... إلخ»، ولمسلم من حديثه: «وسئل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما شانه الله ببيضاء»].

ويقال: إن يحيى بن أكثم ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة، فقال له رجل في مجلسه، يريد أن يخجله بصغر سنه: كم سنُّ القاضي أيَّده الله؟ فقال: مثل سنِّ عتَّاب بن أسيد رضي الله عنه حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها، فأفحمه [أخرجه الخطيب في التاريخ بإسناد فيه نظر؛ وما ذكره ابن أكثم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد رضي الله عنه، فإنه كان حين الولاية ابن عشرين، وأما بالنسبة إلى معاذ رضي الله عنه فإنما يتمُّ له ذلك على قول يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك وابن أبي حاتم: إنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة، والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في الطاعون سنة ثمانية عشر والله أعلم].

وروي عن مالك رحمه الله أنه قال: قرأت في بعض الكتب: لا تغرنَّكم اللحى، فإن التيس له لحية. وقال أبو عمرو بن العلاء: إذا رأيت الرجل طويل القامة، صغير الهامة، عريض اللحية، فاقض عليه بالحمق، ولو كان أمية بن عبد شمس. وقال أيوب السختياني:

أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلَّم منه. وقال علي بن الحسين: من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه، وإن كان أصغر سناً منك. وقيل لأبي عمرو بن العلاء: أيحسن من الشيخ أن يتعلَّم من الصغير؟ فقال: إن كان الجهل يقبح به فالتعلُّم يحسن به.

وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل ـ وقد رآه يمشي خلف بغلة الشافعي ـ: يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوِّه، وتمشي خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه؟ فقال له أحمد: لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر، إن علم سفيان إن فاتني بعلوٍّ أدركته بنزول، وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بعلوٍّ ولا نزول.

الرابع: نتف بياضها استنكافاً من الشيب، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن نتف الشيب وقال: «هو نور المؤمن» [أخرجه أبو داود والترمذي وحسَّنه والنسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]، وهو في معنى الخضاب بالسواد، وعلة الكراهية ما سبق، والشيب نور الله تعالى، والرغبة عنه رغبة عن النور.

الخامس: نتفها أو نتف بعضها بحكم العبث والهوس، وذلك مكروه ومشوِّه للخلقة، ونتف الفنيكين بدعة، وهما جانبا العنفقة. شهد عند عمر بن عبد العزيز رجل كان ينتف فنيكيه، فردَّ شهادته. وردَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن أبي ليلى قاضي المدينة شهادةَ من كان ينتف لحيته.

وأما نتفها في أول النبات تشبُّهاً بالمرد فمن المنكرات الكبار، فإن اللحية زينة الرجال، فإن لله ملائكة يُقسمون: والذي زيَّن بني آدم باللحى، وهو من تمام الخلق، وبها يتميز الرجال عن النساء.

وقيل في غريب التأويل: اللحية هي المراد بقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، قال أصحاب الأحنف بن قيس: وددنا أن نشتري للأحنف لحية ولو بعشرين ألفاً. وقال شريح القاضي: وددت أن لي لحية ولو بعشرة آلاف. وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل، والنظر إليه بعين العلم والوقار والرفع في المجالس، وإقبال الوجوه إليه، والتقديم على الجماعة، ووقاية العرض؟ فإن من يشتم يعرض باللحية إن كان للمشتوم لحية. وقد قيل: إن أهل الجنة مرد إلا هارون أخا موسى صلى الله عليهما وسلم، فإن له لحية إلى سرته تخصيصاً له وتفضيلاً.

السادس: تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة للتزيُّن للنساء والتصنُّع، قال كعب: يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة، ويعرقبون نعالهم كالمناجل، أولئك لا خلاق لهم.

السابع: الزيادة فيها، وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغين، وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللحي، وينتهي إلى نصف الخد، وذلك يباين هيئة أهل الصلاح.

الثامن: تسريحها لأجل الناس، قال بشر بن الحارث: في اللحية شِركان: تسريحها لأجل الناس، وتركها متفتلة لإظهار الزهد.

التاسع والعاشر: النظر في سوادها أو في بياضها بعين العُجب، وذلك مذموم في جميع أجزاء البدن، بل في جميع الأخلاق والأفعال، على ما سيأتي بيانه.

فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة، وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة، خمس منها في الرأس، وهي: فرق شعر الرأس، والمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك.

وثلاثة في اليد والرجل، وهي: القلم، وغسل البراجم، وتنظيف الرواجب.

وأربعة في الجسد، هي: نتف الإبط، والاستحداد، والختان، والاستنجاء بالماء. فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك، وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرُّض للطهارة الظاهرة دون الباطنة، فلنقتصر على هذا، وليحقق أن فضلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى، وسيأتي تفصيلها في ربع المهلكات، مع تعريف الطرق في إزالتها، وتطهير القلب منها إن شاء الله عز وجل.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ١٦٠) (٤٦٩/١)

٢٢ـ وحسن أن يقول المصلي بعد قوله: (الله أكبر): «الله أكبر كبيراً»:

ثم يبتدئ بدعاء الاستفتاح، وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً» [أخرجه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينا نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان

الله بكرة وأصيلاً» أخرجه أبو داود، وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم ﷺ «أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال: الله أكبر كبيراً... الحديث»]، وجهت وجهي – إلى قوله – وأنا من المسلمين» [أخرجه مسلم من حديث علي ﷺ] ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك» [أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث عائشة ﷺ، وضعَّفه الترمذي والدارقطني، ورواه مسلم موقوفاً على عمر ﷺ، وعند البيهقي من حديث جابر ﷺ الجمع بين «وجهت» وبين «سبحانك اللهم»] ليكون جامعاً بين متفرِّقات ما ورد في الأخبار. وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للإمام سكتة طويلة يقرأ فيها الفاتحة، ثم يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم يقرأ الفاتحة يبتدئ فيها بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بتمام تشديداتها وحروفها، ويجتهد في الفرق بين الضاد والظاء، ويقول: (آمين) في آخر الفاتحة، ويمدُّها مداً، ولا يصل (آمين) بقوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وصلاً.

ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموماً، ويجهر بالتأمين، ثم يقرأ السورة إن قدر، أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوي، بأن يفصل بينهما بقدر قوله: (سبحان الله)، ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصَّل، وفي المغرب من قصاره، وفي الظهر والعصر والعشاء نحو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] وما قاربها. وفي الصبح في السفر: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحيَّة، وهو في جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين، كما وصفنا في أول الصلاة.

** ** **

(في الهامش من كتاب الإملاء عن مشكل الإحياء للغزالي ج١ ص١٩٣) (٦/٥٨٩).

٢٣ـ الفرق بين عالم الملك والملكوت والجبروت:

وحدُّ عالم الملك ما ظهر للحواس، ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض، وصحة التعبير.

وحدُّ عالم الملكوت ما أوجده سبحانه بالأمر الأزلي بلا تدريج، وبقي على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه.

وحدُّ عالم الجبروت هو ما بين العالمين، مما يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك، فحيز بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٢٨٣) (٨١/٢)

٢٤ـ كم من مُحْدَث حسن!

يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه، ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها، فإنها تزيين وتبيين وصدٌّ عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه. وقد كان الحسن وابن سيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء. وروي عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحمرة، وأخذ الأجرة على ذلك، وكانوا يقولون: جرِّدوا القرآن. والظنُّ بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفاً من أن يؤدي إلى إحداث زيادات، وحسماً للباب، وتشوُّقاً إلى حراسة القرآن عما يتطرق إليه تغييراً. وإذا لم يؤد إلى محظور، واستقرَّ أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة، فلا بأس به؛ **ولا يمنع من ذلك كونه مُحدَثاً، فكم من مُحدث حسن، كما قيل في إقامة الجماعات في التراويح: إنها من مُحْدَثات عمر رضي الله عنه، وأنها بدعة حسنة، إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة، أو يكاد يفضي إلى تغييرها...**

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٢٩٣) (٩٥/٢)

٢٥ـ حُجُب فهم معاني القرآن أربعة:

... **التخلي عن موانع الفهم**، فإن أكثر الناس مُنعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحُجب أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن، قال صلى الله عليه وسلم: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت» [أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه]، ومعاني القرآن من جملة الملكوت، وكلُّ ما غاب عن الحواس، ولم يُدرك إلا بنور البصيرة، فهو من الملكوت.

وحُجب الفهم أربعة؛ أولها: أن يكون الهمُّ منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من

مخارجها، وهذا يتولى حفظَه شيطان وُكِّل بالقرّاء، ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف، يخيِّل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه. فهذا يكون تأمُّله مقصوراً على مخارج الحروف، فأنَّى تنكشف له المعاني؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس.

ثانيها: أن يكون مقلِّداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، وثبت في نفسه التعصُّب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، فهذا شخص قيَّده معتقده عن أن يجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بعد، وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه، حمل عليه شيطان التقليد حملةً وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان، فيتباعد منه ويحترز عن مثله. ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم حجاب، وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد، أو بمجرَّد كلمات جدليَّة حرَّرها المتعصِّبون للمذاهب وألقوها إليهم. فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجاباً وهو منتهى المطلب؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً، كمن يعتقد في الاستواء على العرش التمكُّن والاستقرار، فإن خطر له مثلاً في القدُّوس أنه المقدَّس عن كلِّ ما يجوز على خلقه، لم يمكِّنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه.. ولو استقرَّ في نفسه لانجرَّ إلى كشف ثان وثالث ولتواصل... ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل. وقد يكون حقاً ويكون أيضاً مانعاً من الفهم والكشف، لأن الحق الذي كلِّف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات، وله مبدأ ظاهر وغور باطن، وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن - كما ذكرناه في الفرق بين العلم الظاهر والباطن في كتاب قواعد العقائد -.

ثالثها: أن يكون مصرّاً على ذنب، أو متَّصفاً بكِبر، أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة، فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حُجب الأكثرون. وكلَّما كانت الشهوات أشدَّ تراكماً، كانت معاني الكلام أشدَّ احتجاباً، وكلما خفَّ عن القلب أثقال الدنيا قرُب تجلي المعنى فيه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن

مثل الصور التي تتراءى في المرآة؛ والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «إذا عظَّمت أمتي الدينار والدرهم نُزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حُرموا بركة الوحي» [رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف معضلاً من حديث الفضيل بن عياض، قال: ذُكر عن نبي الله صلى الله عليه وسلم] قال الفضيل: يعني: حُرموا فهم القرآن.

وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير، فقال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب، ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب.

رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسَّر القرآن برأيه فقد تبوَّأ مقعده من النار، فهذا أيضاً من الحُجُب العظيمة، وسنبين معنى التفسير بالرأي في الباب الرابع، وأن ذلك لا يناقض قول علي رضي الله عنه: إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن؛ وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٢٩٩) (١١١/٢)

٢٦ـ قوله عز وجل: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ معناه:

الإيجاز بالحذف والإضمار: ... وكقوله عز وجل: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨ـ٧٩] معناه: لا يفقهون حديثاً، يقولون: ما أصابك من حسنة فمن الله، فإن لم يرد هذا كان مناقضاً لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٣١٣) (١٣٧/٢)

٢٧ـ آداب الدعاء: وهي عشرة:

الأول: أن يترصَّد لدعائه الأوقات الشريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل. قال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وقال صلى الله عليه وسلم: «ينزل الله تعالى كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول عز وجل: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» [متفق عليه من حديث أبي هريرة ﵁] وقيل: إن يعقوب صلى الله عليه وسلم إنما قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٩٨] ليدعو في وقت السحر، فقيل: إنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه، فأوحى الله عز وجل: إني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء.

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة، فاغتنموا الدعاء فيها. وقال مجاهد: إن الصلاة جعلت في خير الساعات، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات. وقال صلى الله عليه وسلم: «الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُرَدُّ» [أخرجه أبو داود، والنسائي في اليوم والليلة، والترمذي وحسَّنه من حديث أنس ﵁، وضعَّفه ابن عدي وابن القطان، ورواه النسائي في اليوم والليلة بإسناد آخر جيد، وابن حبان، والحاكم وصحَّحه] وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً: «الصائم لا ترد دعوته» [أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه من حديث أبي هريرة ﵁ بزيادة فيه].

وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً، إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوِّشات؛ ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل؛ فهذا أحد أسباب شرف الأوقات، سوى ما فيها من أسرار لا يطَّلع البشر عليها.

وحالة السجود أيضاً أجدر بالإجابة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد، فأكثروا فيه من الدعاء» [رواه مسلم] وروى ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظِّموا فيه الرب تعالى، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء، فإنه قمن أن يستجاب لكم» [أخرجه مسلم أيضاً].

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يُرى بياض إبطيه؛ وروى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف بعرفة، واستقبل القبلة يدعو حتى غربت الشمس [أخرجه مسلم دون قوله: «يدعو» فقال مكانها: «واقفاً»، والنسائي من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما كنت ردفه بعرفات، فرفع يديه يدعو، ورجاله ثقات]. وقال سلمان رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردَّها صفراً» [أخرجه أبو داود والترمذي وحسَّنه وابن ماجه والحاكم وقال: إسناده صحيح على شرطهما]، وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه حتى يُرى بياض إبطيه في الدعاء، ولا يشير بأصبعه [متفق عليه، لكنه مقيَّد بالاستسقاء]، وروى أبو هريرة رضي الله عنه، أنه صلى الله عليه وسلم مرَّ على إنسان يدعو ويشير بإصبعيه السبابتين، فقال صلى الله عليه وسلم: «أحِّدْ أحِّدْ» أي اقتصر على الواحدة [أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد] وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغلَّ بالأغلال.

ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء، قال عمر رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مدَّ يديه في الدعاء لم يردَّهما حتى يمسح بهما وجهه [أخرجه الترمذي وقال: غريب، والحاكم في المستدرك وسكت عليه، وهو ضعيف]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضمَّ كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه [أخرجه الطبراني في الكبير بسند ضعيف] فهذه هيئات اليد.

ولا يرفع بصره إلى السماء، قال صلى الله عليه وسلم: «لينتهينَّ أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفنَّ أبصارهم» [أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال: عند الدعاء في الصلاة].

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر؛ لما روي أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما دنونا من المدينة كبَّر وكبَّر الناس، ورفعوا أصواتهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس! إن الذي تدعون

ليس بأصمَّ ولا غائب، إن الذي تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم» [متفق عليه مع اختلاف، واللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود]. وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]: أي بدعائك [متفق عليه]. وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، وقال عز وجل: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

الخامس: أن لا يتكلَّف السجع في الدعاء، فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرِّع، والتكلُّف لا يناسبه، قال صلى الله عليه وسلم: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء» [وفي رواية: «والطهور»، أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه] وقد قال عزَّ وجل: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] قيل: معناه التكلُّف للأسجاع، والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة، فإنه قد يعتدي في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته، فما كلُّ أحد يُحسن الدعاء؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إياكم والسجع في الدعاء، حسب أحدكم أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل» [غريب بهذا السياق، وللبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفعلون إلا ذلك» وابن ماجه والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد من حديث عائشة رضي الله عنها: «عليك بالكوامل» وفيه: «وأسألك الجنة...» إلى آخره]. وفي الخبر: «سيأتي قوم يعتدون في الدعاء والطُّهور». ومرَّ بعض السلف بقاصٍّ يدعو بسجع فقال له: أعلى الله تبالغ؟ أشهد لقد رأيت حبيباً العجمي يدعو وما يزيد على قوله: اللهم اجعلنا خيِّرين، اللهم لا تفضحنا يوم القيامة، اللهم وفِّقنا للخير، والناس يدعون من كلِّ ناحية وراءه، وكان يعرف بركة دعائه. وقال بعضهم: ادع بلسان الذلة والافتقار، لا بلسان الفصاحة والانطلاق.

ويقال: إن العلماء والأبدال لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها، ويشهد له آخر سورة البقرة، فإن الله تعالى لم يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك.

واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلَّف من الكلام، فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذِّلَّة، وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة، لكنها غير متكلَّفة، كقوله صلى الله عليه وسلم: «أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع

المقرَّبين الشهود، والرُّكَّع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد» [أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته... فذكر حديثاً طويلاً من جملته هذا، وقال: حديث غريب، انتهى. وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيئ الحفظ] وأمثال ذلك، فليقتصر على المأثور من الدعوات، أو ليلتمس بلسان التضرُّع والخشوع، من غير سجع وتكلُّف، فالتضرُّع هو المحبوب عند الله عز وجل

السادس: التضرُّع والخشوع والرغبة والرهبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال عز وجل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرُّعه» [أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس رضي الله عنه: «إذا أحبَّ الله عبداً صبَّ عليه البلاء صباً...» الحديث، وفيه: «دعه فإني أحبُّ أن أسمع صوته»، وللطبراني من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «إن الله يقول للملائكة: انطلقوا إلى عبدي فصبوا عليه البلاء...» الحديث، وفيه: «فإني أحبُّ أن أسمع صوته» وسندهما ضعيف].

السابع: أن يجزم الدعاء، ويوقن بالإجابة، ويصدق رجاؤه فيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له» [متَّفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء» [أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]، وقال صلى الله عليه وسلم: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل» [أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال: غريب، والحاكم وقال: مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المري، وهو أحد زهاد البصرة. قلت: لكنه ضعيف في الحديث]. وقال سفيان بن عيينة: لا يمنعنَّ أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٧].

الثامن: أن يلحَّ في الدعاء ويكرِّره ثلاثاً، قال ابن مسعود: «كان عليه الصلاة والسلام إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً» [رواه مسلم وأصله متَّفق عليه]. وينبغي أن لا يستبطئ الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم

يستجب لي، فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً، فإنك تدعو كريماً» [متَّفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]. وقال بعضهم: إني أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة وما أجابني، وأنا أرجو الإجابة، سألت الله تعالى أن يوفِّقني لترك ما لا يعنيني. وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الإجابة فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، ومن أبطأ عنه من ذلك شيء فليقل: الحمد لله على كلِّ حال» [أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وللحاكم نحوه من حديث عائشة رضي الله عنها مختصراً بإسناد ضعيف].

التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال. قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب» [أخرجه الإمام أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد، قلت: فيه عمر بن راشد اليماني، ضعَّفه الجمهور]. قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يسأله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله عز وجل يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما. وروي في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سألتم الله عز وجل حاجة فابتدئوا بالصلاة عليَّ، فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويرد الأخرى» [لم أجده مرفوعاً، وإنما هو موقوف على أبي الدرداء رضي الله عنه] رواه أبو طالب المكي.

العاشر: وهو الأدب الباطن، وهو الأصل في الإجابة: التوبة، وردُّ المظالم، والإقبال على الله عز وجل بكنه الهمة؛ فذلك هو السبب القريب في الإجابة. فيروى عن كعب الأحبار أنه قال: أصاب الناسَ قحطٌ شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى ببني إسرائيل يستسقي بهم، فلم يُسقوا، حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمَّام، فقال موسى: يا رب ومن هو حتى نخرجه من بيننا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً؟! فقال موسى لبني إسرائيل: توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة، فتابوا، فأرسل الله تعالى عليهم الغيث.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ١ / ص ٣٢٥) (١٦٧/٢)

٢٨ـ فإن كنت من المريدين لحرث الآخرة، المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به، فقل في مفتتح دعائك:

يستحب للمريد إذا أصبح أن يكون أحبُّ أوراده الدعاء، فإن كنتَ من المريدين لحرث الآخرة، المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به، فقل في مفتتح دعواتك أعقاب صلواتك:

سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب [أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد، قلت: فيه عمر بن راشد اليماني، ضعَّفه الجمهور]، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير [متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه].

وقل: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً - ثلاث مرات - [أخرجه أبو داود، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، من حديث خادم النبي صلى الله عليه وسلم، ورواه الترمذي من حديث ثوبان رضي الله عنه وحسَّنه، وفيه نظر، ففيه سعد بن المرزبان ضعيف جداً].

وقل: اللهم فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، ربَّ كلِّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطان وشركه [أخرجه أبو داود والترمذي وصحَّحه وابن حبان والحاكم وصحَّحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: «قل: اللهم...» فذكره].

وقل: اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، وأقل عثراتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي [أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح...].

اللهم لا تؤمِّنِّي مكرك، ولا تولِّني غيرك، ولا تنزع عني سترك، ولا تُنسني ذكرك، ولا تجعلني من الغافلين [رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله: «ولا تولني غيرك» وإسناده ضعيف].

وقل: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت – ثلاث مرات – [أخرجه البخاري من حديث شداد بن أوس ﵁].

وقل: اللهم عافني في بدني، وعافني في سمعني، وعافني في بصري، لا إله إلا أنت – ثلاث مرات – [أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بكرة ﵁، وقال النسائي: جعفر بن ميمون ليس بالقوي].

وقل: اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وشوقاً إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلَّة، وأعوذ بك أن أظلم أو أُظلم، أو أعتدي أو يُعتدى عليَّ، أو أكسب خطيئة أو ذنباً لا تغفره [أخرجه أحمد والحاكم من حديث زيد بن ثابت ﵁، في أثناء حديث، وقال: صحيح الإسناد].

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة في الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلباً خاشعاً سليماً، وخلقاً مستقيماً، ولساناً صادقاً، وعملاً متقبلاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، فإنك تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب [أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث شداد بن أوس ﵁. قلت: بل هو منقطع وضعيف].

اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كلَّ شيء قدير، وعلى كلِّ غيب شهيد [متفق عليه من حديث أبي موسى ﵁ دون قوله: «وعلى كل غيب شهيد»].

اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين الأبد، ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد [أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من حديث عبد الله بن مسعود ﵁ دون قوله: «وقرة عين الأبد» وقال: صحيح الإسناد، وللنسائي من حديث عمار بن ياسر ﵁ بإسناد جيد: «وأسألك نعيماً لا يبيد، وقرة عين لا تنقطع»].

اللهم إني أسألك الطيبات، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، أسألك حبَّك، وحبَّ من أحبَّك، وحبَّ كلِّ عمل يقرِّب إلى حبِّك، وأن تتوب عليَّ، وتغفر لي وترحمني، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون [أخرجه الترمذي من حديث معاذ

ﷺ: «اللهم إني أسألك فعل الخيرات...» الحديث، وقال: حسن صحيح، ولم يذكر: «الطيبات»، وهي في الدعاء للطبراني من حديث عبد الرحمن بن عايش، وقال أبو حاتم: ليست له صحبة].

اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني ما كانت الوفاة خيراً لي، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين [أخرجه النسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث عمار بن ياسر ﷺ قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به].

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة [أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري، من حديث ابن عمر ﷺ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يختم مجلسه بذلك].

اللهم املأ وجوهنا منك حياء، وقلوبنا منك فَرَقاً، وأسكن في نفوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخدمتك، واجعلك اللهم أحبَّ إلينا ممن سواك، واجعلنا أخشى لك ممن سواك.

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً، وأوسطه فلاحاً، وآخره نجاحاً، اللهم اجعل أوله رحمة، وأوسطه نعمة، وآخره تكرمة ومغفرة [أخرجه عبد بن حميد في المنتخب، والطبراني من حديث ابن أوفى بالشطر الأول فقط، إلى قوله: «نجاحاً» وإسناده ضعيف].

الحمد لله الذي تواضع كلُّ شيء لعظمته، وذلَّ كلُّ شيء لعزَّته، وخضع كلُّ شيء لملكه، واستسلم كلُّ شيء لقدرته، والحمد لله الذي سكن كلُّ شيء لهيبته، وأظهر كلَّ شيء بحكمته، وتصاغر كلُّ شيء لكبريائه [أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر ﷺ بسند ضعيف، دون قوله: «والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته» إلى آخره، وكذلك رواه في الدعاء من حديث أم سلمة ﷺ وسنده ضعيف أيضاً].

اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، وأزواج محمد، وذريته، وبارك على محمد، وعلى آله وأزواجه وذريته، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد [متفق عليه من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ].

اللهم صلِّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي ورسولك الأمين، وأعطه المقام المحمود الذي وعدته يوم الدين [لم أجده بهذا اللفظ مجموعاً، والبخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «اللهم صل على محمد عبدك ورسولك» وابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «اللهم صل على محمد النبي الأمي» والنسائي من حديث جابر رضي الله عنه: «وابعثه المقام المحمود الذي وعدته» وهو عند البخاري بلفظ: «وابعثه مقاماً محموداً» قال الدارقطني: وإسناده حسن، وقال الحاكم: صحيح، وقال البيهقي في المعرفة: إسناده صحيح].

اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين، وحزبك المفلحين، وعبادك الصالحين، واستعملنا لمرضاتك عنا، ووفِّقنا لمحابِّك منا، وصرِّفنا بحسن اختيارك لنا.

نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه، ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه [أخرجه الطبراني من حديث أم سلمة رضي الله عنها أنه كان يدعو بهذه الكلمات، فذكر منها: «اللهم إني أسألك فواتح الخير وخواتمه، وأوله وآخره، وظاهره وباطنه، والدرجات العلى من الجنة آمين» فيه عاصم بن عبيد لا أعلم روى عنه إلا موسى بن عقبة].

اللهم بقدرتك عليَّ، تب عليَّ، إنك أنت التواب الرحيم؛ وبحلمك عني، اعف عني، إنك أنت الغفار الحليم؛ وبعلمك بي، ارفق بي، إنك أنت أرحم الراحمين؛ وبملكك لي، ملِّكني نفسي، ولا تسلِّطها عليَّ، إنك أنت الملك الجبار.

سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فاغفر لي ذنبي، إنك أنت ربي، ولا يغفر الذنوب إلا أنت [أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث علي رضي الله عنه دون قوله: «ذنبي إنك أنت ربي»].

اللهم ألهمني رشدي، وقني شرَّ نفسي [أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه لحصين، وقال: حسن غريب، ورواه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من حديث حصين والد عمران رضي الله عنهما وقال: صحيح على شرط الشيخين].

اللهم ارزقني حلالاً لا تعاقبني عليه، وقنِّعني بما رزقتني، واستعملني به صالحاً تقبله مني [أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو: «اللهم قنِّعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كل غائبة لي بخير» وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه].

اللهم إني أسألك العفو والعافية، وحسن اليقين، والمعافاة في الدنيا والآخرة [أخرجه النسائي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه بلفظ: «سلوا الله المعافاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من

المعافاة» وفي رواية للبيهقي: «سلوا الله العفو والعافية، واليقين في الأولى والآخرة، فإنه ما أوتي العبد بعد اليقين خيراً من العافية» وفي رواية لأحمد: «أسأل الله العفو والعافية»].

يا من لا تضرُّه الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب لي ما لا يضرك، وأعطني ما لا ينقصك [أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي ﷺ بسند ضعيف].

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]؛ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]؛ ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥]؛ ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]؛ ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]؛ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ١٠]؛ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]؛ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣-١٩٤]؛ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً، واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات.

رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، وأنت الأعز الأكرم. وأنت خير الراحمين، وأنت خير الغافرين.

وإنا لله، وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٤ / ص ٢٤١) (٤٨٢/٥)

٢٩ـ قال العارفون: كشف سر الربوبية كفر:

فإن قلت: كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحد، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات؛ وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر. ثم هو غير متعلِّق بعلم المعاملة، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن، وهو أن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد، إذ نقول: إنه إنسان واحد، فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد، وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه، وتفصيل روحه وجسده وأعضائه؛ والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق، وكأنه في عين الجمع، والملتفت إلى الكثرة في تفرقة، فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخر سواه كثير، وبعضها أشد كثرة من بعض؛ ومثاله الإنسان، وإن كان لا يطابق الغرض، ولكنه ينبِّه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً، ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق؛ فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك، كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبياً، كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك، وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف، وهو الأكثر، والدوام نادر عزيز، وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال: فيماذا أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لأصحِّح حالتي في التوكل، وقد كان من المتوكلين، فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال.

** ** **

في الهامش من كتاب الإملاء عن مشكل الإحياء للغزالي - (ج ١ / ص ١٥٥) (٥٧٦/٦)

٣٠ـ معنى: (إفشاء سرِّ الربوبية كفر):

فصل: وأما معنى: (إفشاء سرِّ الربوبية كفر) فيخرج على أن يكون المراد به كفر دون كفر، ويسمى بذلك تعظيماً لما أتى به المفشي وتعظيماً لما ارتكبه، ويعترض هذا بأن يقال: لا يصح أن يسمى هذا كفراً، لأنه ضد الكفر، إذ الكفر الذي سمي على معناه ساتر، وهذا المفشي للسرِّ ناشر، وأين النشر والإظهار من التغطية، والإعلان من الكتم؟ واندفاع هذا هين بأن يقال: ليس الكفر الشرعي تابع الاشتقاق، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر وارتكاب النهي، فمن ردَّ إحسان محسن أو جحد نعمة متفضِّل فيقال عليه كافر، لجهتين:

إحداهما: من جهة الاشتقاق، ويكون إذ ذاك اسماً ينبئ عن وصف.

والثانية: من جهة الشرع، ويكون إذ ذاك حكماً يوجب عقوبة، والشرع قد ورد بشكر المنعم، فافهم ولا تذهب مع الألفاظ، ولا يغرَّنَّك العبارات ولا تحجبك التسميات، وتفطن لخداعها، واحترس من استدراجها، فإذاً من أظهر ما أُمر بكتمه كان كمن كتم ما أُمر بنشره، وفي مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار، ويدلُّ على ذلك من جهة الشرع قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تحدِّثوا الناس بما لم تصله عقولهم» [أخرجه البخاري]، وفي ارتكاب النهي عصيان، ويسمى في باب القياس على المذكور كفران البدن.

** ** **

من الجزء الثاني

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٤٩) (٣٧٩/٢)

١ـ يلزم على المرأة بعد انقطاع الدم قضاء الصلاة:

... أن يتعلَّم المتزوِّج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب، ويعلِّم زوجته أحكام الصلاة، وما يقضى منها في الحيض، وما لا يقضى، فإنه أُمِر بأن يقيها النار بقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، فعليه أن يلقِّنها اعتقاد أهل السنة، ويزيل عن قلبها كلَّ بدعة إن استمعت إليها، ويخوِّفها في الله إن تساهلت في أمر الدين، ويعلِّمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه، وعلم الاستحاضة يطول؛ **فأما الذي لا بدَّ من إرشاد النساء إليه في أمر الحيض بيان الصلوات التي تقضيها**، فإنها مهما انقطع دمها قبيل المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر، وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء، وهذا أقلُّ ما يراعيه النساء، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قَصُر علم الرجل، ولكن ناب عنها في السؤال، فأخبرها بجواب المفتي، فليس لها خروج، فإن لم يكن فلها الخروج للسؤال، بل عليها ذلك، ويعصي الرجل بمنعها؛ ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر، ولا إلى تعلُّم فضل إلا برضاه، ومهما أهملت المرأة حكماً من أحكام الحيض والاستحاضة، ولم يعلِّمها الرجل، حرج الرجل معها وشاركها في الإثم.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٧٥) (٤٣٦/٢)

٢ـ التجارة في الأقوات مما لا يستحبُّ:

... **وبالجملة التجارة في الأقوات مما لا يستحبُّ**، لأنه طلب ربح، والأقوات أصول خُلقت قَواماً، والربح من المزايا، فينبغي أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التي لا ضرورة للخلق إليها، ولذلك أوصى بعض التابعين رجلاً وقال: لا تسلم ولدك في بيعتين، ولا في صنعتين: بيع الطعام، وبيع الأكفان؛ فإنه يتمنى الغلاء، وموت الناس. والصنعتان: أن يكون جزاراً، فإنها صنعة تقسي القلب، أو صواغاً، فإنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ١٠٣) (٢/٥٠١)

٣ـ حكم من علم أن مال الدنيا خالطه حرام:

... **وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً** لا يلزمه ترك الشراء والأكل، فإنَّ كلَّ ذلك حرج، وما في الدين من حرج؛ ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم مِجَنٌّ، وغلَّ واحد في الغنيمة عباءة، لم يمتنع أحد من شراء المجان والعباء في الدنيا، وكذلك كلُّ ما سرق، وكذلك كان يعرف أن في الناس من يربي في الدراهم والدنانير، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهمَ والدنانيرَ بالكلية. وبالجملة إنما تنفك عن الحرام إذا عصم الخلق كلُّهم عن المعاصي، وهو محال.

وإذا لم يُشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضاً في بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين، بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين، إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة، ولا يتصوَّر الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار.

فإن قلت: فكلُّ عدد محصور في علم الله، فما حدُّ المحصور؟ ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضاً إن تمكَّن منه، فاعلم أن تحديد أمثال هذه غير ممكن، وإنما يضبط بالتقريب.

فنقول: كلُّ عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عدُّهم بمجرد النظر، كالألف والألفين، فهو غير محصور، وما سهل كالعشرة والعشرين فهو محصور، وبين الطرفين أوساط متشابهة تُلحق بأحد الطرفين بالظن، وما وقع الشك فيه استفتى فيه القلب، فإن الإثم حزَّاز القلوب؛ وفي مثل هذا المقام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة رضي الله عنه: «استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك وإن أفتوك» [أخرجه أحمد من حديث وابصة رضي الله عنه].

** ** **

إحياء علوم الدين (ج ٢ ص١٠٤) (٢/٥٠٢)

٤ـ اختلط حرام لا يُحصر، بحلال لا يُحصر:

القسم الثالث: أن يختلط حرام لا يُحصر بحلال لا يُحصر، كحكم الأموال في زماننا

هذا، فالذي يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور، كنسبة المحصور إلى المحصور، وقد حكمنا ثَمَّ بالتحريم، فلنحكم هنا به، والذي نختاره خلاف ذلك: وهو أنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه احتمل أنه حرام وأنه حلال، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدلُّ على أنه من الحرام، فإن لم يكن في العين علامة تدلُّ على أنه من الحرام فتركه ورع، وأخذه حلال لا يفسق به آكله.

ومن العلامات: أن يأخذه من يد سلطان ظالم، إلى غير ذلك من العلامات التي سيأتي ذكرها، ويدل عليه الأثر والقياس.

فأما الأثر: فما علم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده، إذ كانت أثمان الخمور ودراهم الربا من أيدي أهل الذمة مختلطة بالأموال، وكذا غلول الأموال، وكذا غلول الغنيمة، ومن الوقت الذي نهى صلى الله عليه وسلم عن الربا إذ قال: «أول ربا أضعه ربا العباس» [أخرجه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه] ما ترك الناس الربا بأجمعهم، كما لم يتركوا شرب الخمور وسائر المعاصي، حتى روي أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باع الخمر، فقال عمر رضي الله عنه: لعن الله فلاناً، هو أول من سنَّ بيع الخمر، إذ لم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم لثمنها. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن فلاناً يجرُّ في النار عباءة قد غلها» [رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه]، وقتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزات من خرز اليهود لا تساوي درهمين قد غلَّها [رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه]، وكذلك أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلَمة، ولم يمتنع أحد منهم عن الشراء والبيع في السوق بسبب نهب المدينة، وقد نهبها أصحاب يزيد ثلاثة أيام، وكان من يمتنع من تلك الأموال مشاراً إليه في الورع، والأكثرون لم يمتنعوا مع الاختلاط وكثرة الأموال المنهوبة في أيام الظلمة؛ ومن أوجب ما لم يوجبه السلف الصالح، وزعم أنه تفطَّن من الشرع ما لم يتفطَّنوا له، فهو موسوس مختل العقل، ولو جاز أن يزاد عليهم في أمثال هذا لجاز مخالفتهم في مسائل لا مستند فيها سوى اتفاقهم، كقولهم: إن الجدة كالأم في التحريم، وابن الابن كالابن، وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه في القرآن، والربا جار فيما عدا الأشياء الستة، وذلك محال؛ فإنهم أولى بفهم الشرع من غيرهم.

وأما القياس: فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسدَّ باب جميع التصرفات، وخرب العالم،

إذ الفسق يغلب على الناس، ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود، ويؤدي ذلك لا محالة إلى الاختلاط.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ١١٢) (٥١٩/٢)

٥ـ الأكل من شاة علفت بعلف مغصوب، أو رعت في مرعى حرام:

الدرجة العليا، التي تشتد الكراهة فيها: ما بقي أثره في المتناول، كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب، أو رعت في مرعى حرام، فإن ذلك معصية، وقد كان سبباً لبقائها، وربما يكون الباقي من دمها ولحمها وأجزائها من ذلك العلف، وهذا الورع مهم، وإن لم يكن واجباً، ونقل عن ذلك عن جماعة من السلف.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ١٩٦) (١٠٠/٣)

٦ـ حديث جرير رضي الله عنه حين جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

وروي أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته، فدخل عليه أصحابه، حتى غصَّ المجلس وامتلأ؛ فجاء جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه فلم يجد مكاناً، فقعد على الباب، فلفَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه وقال: «اجلس على هذا»، فأخذه جرير ووضعه على وجهه، وجعل يقبِّله ويبكي، ثم لفَّه ورمى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ما كنت لأجلس على ثوبك؛ أكرمك الله كما أكرمتني، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يميناً وشمالاً ثم قال: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه» [أخرجه الحاكم من حديث جابر رضي الله عنه وقال: صحيح الإسناد].

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٢٠٢) (١١٤/٣)

٧ـ تقبيل الصحابة رضي الله عنهم يد النبي صلى الله عليه وسلم:

ولا بأس بقُبلة يد الرجل المعظَّم في الدين، تبرُّكاً به وتوقيراً له. وروي عن ابن عمر

رضي الله عنهما: قال: قبَّلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم [أخرجه أبو داود بإسناد حسن]، وعن كعب بن مالك ﵁ قال: لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبَّلت يده [أخرجه أبو بكر بن المقري في كتاب الرخصة في تقبيل اليد بسند ضعيف]، وروي أن أعرابياً قال: يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك، قال: فأذن له ففعل [أخرجه الحاكم من حديث بريدة ﵁ إلا أنه قال: «رجليك» موضع «يدك» وقال: صحيح الإسناد]، ولقي أبو عبيدة عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهما فصافحه وقبَّل يده، وتنحَّيا يبكيان.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٢١٨) (١٥٢/٣)

٨ ـ أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات، وإن لم تجب في الحرام المحض:

أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات، وإن لم تجب في الحرام المحض، حتى إذا كانا يتنغَّصان بانفرادك عنهما بالطعام، فعليك أن تأكل معهما، لأن ترك الشبهة ورع، ورضا الوالدين حتم. وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل، لأنه على التأخير، والخروج لطلب العلم نفل، إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم، ولم يكن في بلدك من يعلِّمك، وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام، فعليه الهجرة، ولا يتقيَّد بحقِّ الوالدين.

قال أبو سعيد الخدري ﵁: هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل باليمن أبواك»؟ قال: نعم، قال: «هل أذنا لك»؟ قال: لا، فقال عليه الصلاة والسلام: «فارجع إلى أبويك فاستأذنهما، فإن فعلا فجاهد، وإلا فبرَّهما ما استطعت، فإن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد» [أخرجه الإمام أحمد وابن حبان دون قوله: «ما استطعت»]، وجاء آخر إليه صلى الله عليه وسلم ليستشيره في الغزو فقال: «ألك والدة»؟ قال: نعم. قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها» [أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جاهمة ﵁: أن جاهمة أتى النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الحاكم: صحيح الإسناد]. وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال: ما جئتك حتى أبكيت والديَّ، فقال: «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما» [أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ وقال: صحيح الإسناد].

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٢٣٢) (١٨١/٣)

٩ـ (من فوائد العزلة):

الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها، والتعرُّض لأخطارها، وقلَّما تخلو البلاد عن تعصُّبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها. قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄: لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن ووصفها إذ قال: «إذا رأيت الناس مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا - وشبَّك بين أصابعه -» قلت: فما تأمرني؟ فقال: «الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة» [أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن]. وروى أبو سعيد الخدري ﵁ أنه صلى الله عليه وسلم قال: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن من شاهق إلى شاهق» [رواه البخاري] وروى عبد الله بن مسعود ﵁ أنه صلى الله عليه وسلم قال: «سيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه، إلا من فرّ بدينه من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذي يروغ» قيل له: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصي الله تعالى، فإذا كان ذلك الزمان حلَّت العزوبة» قالوا: وكيف يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج؟ قال: «إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده، فإن لم يكن فعلى يدي قرابته» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يعيِّرونه بضيق اليد، فيتكلَّف ما لا يطيق، حتى يورده ذلك موارد الهلكة» [أخرجه الخطابي في العزلة من حديث ابن مسعود ﵁ نحوه، وللبيهقي في الزهد نحوه من حديث أبي هريرة ﵁، وكلاهما ضعيف].

وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه؛ إذ لا يستغني المتأهِّل عن

المعيشة والمخالطة، ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى، ولست أقول: هذا أوان ذلك الزمان، فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر، ولأجله قال سفيان: والله لقد حلَّت العزلة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام الهرج، قلت: وما الهرج؟ قال: «حين لا يأمن الرجل جليسه» قلت: فيم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: «كفَّ نفسك ويدك، وادخل دارك»، قال: قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل على داري؟ قال: «فادخل بيتك»، قلت: فإن دخل على بيتي؟ قال: «فادخل مسجدك واصنع هكذا ـ وقبض على الكوع ـ وقل: ربي الله، حتى تموت» [أخرجه أبو داود مختصراً، والخطابي في العزلة بتمامه، وفي إسناده عند الخطابي انقطاع، ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته].

وقال سعد ﷺ – لما دعي إلى الخروج أيام معاوية ﷺ –: لا ... إلا أن تعطوني سيفاً له عينان بصيرتان، ولسان ينطق بالكافر فأقتله، وبالمؤمن فأكفَّ عنه، وقال: مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجَّة بيضاء، فبينما هم كذلك يسيرون إذ هاجت ريح عجاجة، فضلوا الطريق فالتبس عليهم؛ فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين، فأخذوا فيها، فتاهوا وضلوا، وقال بعضهم: ذات الشمال، فأخذوا فيها، فتاهوا وضلوا، وأناخ آخرون، وتوقَّفوا حتى ذهبت الريح وتبيَّنت الطريق، فسافروا. فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن، ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجَّه إلى العراق تبعه، فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام، فقال له: أين تريد؟ فقال: العراق، فإذا معه طوامير وكتب؛ فقال: هذه كتبهم وبيعتهم، فقال: لا تنظر إلى كتبهم ولا تأتهم، فأبى، فقال: إني أحدِّثك حديثاً، جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فخيَّره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا، وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال: استودعك الله من قتيل أو أسير [رواه الطبراني مقتصراً على المرفوع، ورواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة، ولم يقل: على مسيرة ثلاثة أيام. وكذا رواه البزار بنحوه، وإسنادهما حسن].

وكان في الصحابة عشرة آلاف، فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلاً.

وجلس طاوس في بيته، فقيل له في ذلك، فقال: فساد الزمان وحيف الأئمة.

ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له: لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: رأيت مساجدكم لاهية، وأسواقكم لاغية، والفاحشة في فجاجكم عالية، وفيما هناك عما أنتم فيه عافية.

فإذن الحذر من الخصومات، ومثارات الفتن، إحدى فوائد العزلة.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٢٧٩) (٣/٢٨٦)

١٠- العوارض التي يحرم فيها السماع (حكم المسمِع، والمستمع، والآلات التي يحرم الإصغاء إليها، واللاتي يباح):

فإن قلت: فهل له حالة يحرم فيها؟

فأقول: إنه يحرم بخمسة عوارض: عارض في المسمِع، وعارض في آلة الإسماع، وعارض في نظم الصوت، وعارض في نفس المستمع، أو في مواظبته، وعارض في كون الشخص من عوام الخلق؛ لأن أركان السماع هي المسمِع والمستمع وآلة الإسماع.

العارض الأول: أن يكون المسمِع امرأة لا يحلُّ النظر إليها، وتخشى الفتنة من سماعها، وفي معناها الصبي الأمرد الذي تخشى فتنته؛ وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغناء، بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضاً؛ وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته.

فإن قلت: فهل تقول إن ذلك حرام بكلِّ حال حسماً للباب، أو لا يحرم إلا حيث تُخاف الفتنة في حق من يخاف العنت؟

فأقول: هذه مسألة محتملة من حيث الفقه، يتجاذبها أصلان؛ أحدهما: أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام، سواء خيفت الفتنة أو لم تخف؛ لأنها مظنة الفتنة على الجملة، فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور. والثاني: أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة، فلا يُلحق الصبيان بالنساء في عموم الحسم، بل يتبع

فيه فتنة الحال، وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب، وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق، إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيجانها، ولا تدعو إلى سماع الصوت، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السماع، بل هو أشدُّ، وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة، فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلِّمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك، ولكن للغناء مزيد أثر في تحريك الشهوة، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى، لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات، فينبغي أن يتبع مثار الفتن، ويقصر التحريم عليه، هذا هو الأقيس عندي؛ ويتأيد بحديث الجاريتين المغنِّيتين في بيت عائشة رضي الله عنها، إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما، ولم يحترز منه، ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه، فلذلك لم يحترز، فإذن يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل، في كونه شاباً وشيخاً، ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال، فإنا نقول: للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم، وليس للشاب ذلك؛ لأن القبلة تدعو إلى الوقاع في الصوم، وهو محظور، والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة، وهو حرام، فيختلف ذلك أيضاً بالأشخاص.

العارض الثاني: في الآلة، بأن تكون من شعار أهل الشرب أو المخنثين؛ وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة، وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة، كالدف، وإن كان فيه الجلاجل، وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات.

العارض الثالث: في نظم الصوت وهو الشعر، فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو، أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضي الله عنهم، كما رتبه الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستمع شريك للقائل. وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال. وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز. فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجي الكفار، وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك [متفق عليه من حديث البراء رضي الله عنه، أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان رضي الله عنه: «اهجهم ـ أو هاجهم ـ وجبريل معك»].

فأما النسيب، وهو الذي فيه التشبيب، بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء، فهذا فيه نظر؛ والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن؛ وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة، فإن نزله فلينزله على من يحلُّ له من زوجته وجاريته؛ فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإحالة الفكر فيه؛ ومَنْ هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأساً، فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه؛ سوء كان اللفظ مناسباً له أو لم يكن، إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة، فالذي يغلب على قلبه حبُّ الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلاً ظلمة الكفر، وبنضارة الخدِّ نور الإيمان، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين، وبذكر الرقيب المشوِّش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوِّشة لدوام الأنس بالله تعالى، ولا يحتاج في تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكُّر ومهلة، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ. كما روي عن بعض الشيوخ، أنه مر في السوق فسمع واحداً يقول: الخيار عشرة بحبة، فغلبه الوجد، فسئل عن ذلك فقال: إذا كان الخيار عشرة بحبة، فما قيمة الأشرار؟ واجتاز بعضهم في السوق فسمع قائلاً يقول: يا سعتر بري، فغلبه الوجد، فقيل له: على ماذا كان وجدك؟ فقال: سمعته كأنه يقول: اسع تر بري، حتى إنَّ العجمي قد يغلب عليه الوجد على الأبيات المنظومة بلغة العرب، فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية، فيفهم منها معان آخر. أنشد بعضهم: "وما زارني في الليل إلا خياله"، فتواجد عليه رجل أعجمي، فسئل عن سبب وَجْدِه، فقال: إنه يقول: ما زاريم، وهو كما يقول، فإن لفظ زار يدل في العجمية على المشرف على الهلاك، فتوهَّم أنه يقول: كلنا مشرفون على الهلاك، فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة.

والمحترق في حبِّ الله تعالى وجده بحسب فهمه، وفهمه بحسب تخيُّله، وليس من شرط تخيُّله أن يوافق مراد الشاعر ولغته، فهذا الوجد حق وصدق، ومن استشعر خطر هلاك الآخرة فجدير بأن يتشوَّش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه. فإذن ليس في تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة، بل الذي غلب عليه عشق مخلوق ينبغي أن يحترز من السماع بأيِّ لفظ كان، والذي غلب عليه حبُّ الله تعالى فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعاني اللطيفة المتعلِّقة بمجاري همته الشريفة.

العارض الرابع: في المستمع، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه، وكان في غرة الشباب، وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها، فالسماع حرام عليه، سواء غلب على قلبه حبُّ شخص معين أو لم يغلب، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخد والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته، وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه، فتشتعل فيه نار الشهوة، وتحتدُّ بواعث الشر، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان، والتخذيل للعقل المانع منه، الذي هو حزب الله تعالى، والقتال في القلب دائم بين جنود الشيطان، وهي الشهوات، وبين حزب الله تعالى، وهو نور العقل، إلا في قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية، وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها، فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجها، فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشحيذ سيوفها وأسنَّتها، والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص، فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع، فإنه يستضرُّ به.

العارض الخامس: أن يكون الشخص من عوام الخلق، ولم يغلب عليه حب الله تعالى، فيكون السماع له محبوباً، ولو غلبت عليه شهوة فيكون في حقِّه محظوراً، ولكنه أبيح في حقه كسائر أنواع اللذات المباحة، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيراه، وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السفيه الذي تردُّ شهادته، فإن المواظبة على اللهو جناية، وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة، فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام، فإنه ممنوع، وإن لم يكن أصله ممنوعاً، إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٢٨١) (٢٨٩/٣)

١١ـ حكم اللعب بالشطرنج:

ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج، فإنه مباح، ولكن المواظبة عليه مكروهةٌ كراهة شديدة؛ ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب، إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه، فيشتغل في سائر الأوقات بالجدِّ في الدنيا كالكسب والتجارة، أو في الدين كالصلاة والقراءة. واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجِدِّ كاستحسان الخال على الخد، ولو استوعبت الخيلانُ الوجهَ لشوَّهته،

فما أقبح ذلك! فيعود الحُسن قُبحاً بسبب الكثرة، فما كلُّ حسن يَحْسُن كثيره، ولا كلُّ مباح يباح كثيره، بل الخبز مباح، والاستكثار منه حرام؛ فهذا المباح كسائر المباحات.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٣١٥) (٣٦٢/٣)

١٢ـ لا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه:

المحترم هو الأستاذ المفيد للعلم من حيث الدين، ولا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه، فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلَّمه منه. وروي أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على والده؟ فقال: يعظه ما لم يغضب، فإن غضب سكت عنه.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٣٤٠) (٤١١/٣)

١٣ـ قصة الحسن البصري رحمه الله تعالى مع الحجاج عليه ما يستحق:

ويروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه، ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل، فقال الحجاج: مرحباً بأبي سعيد، إليَّ إليَّ، ثم دعا بكرسي فوُضع إلى جنب سريره، فقعد عليه؛ فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا، إذ ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فنال منه، ونلنا منه مقاربة له وفَرَقاً من شره؛ والحسن ساكت عاضٌّ على إبهامه؛ فقال: يا أبا سعيد مالي أراك ساكتاً؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني برأيك في أبي تراب، قال: سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فعليٌّ رضي الله عنه ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول: ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام، وختنه على ابنته، وأحبُّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها. وأقول: إن كانت لعلي رضي الله عنه هناة فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا.

فبسر وجه الحجاج وتغيَّر، وقام عن السرير مغضباً، فدخل بيتاً خلفه وخرجنا.

قال عامر الشعبي: فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد أغضبتَ الأمير وأوغرتَ صدره، فقال: إليك عني يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم أهل الكوفة، أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلِّمه بهواه وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر، هلا اتقيت إن سئلت فصدقت، أو سكتَّ فسلمت؟ قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها، قال الحسن: فذاك أعظم من الحجة عليك وأشدُّ في التبعة. قال: وبعث الحجاج إلى الحسن، فلما دخل عليه قال: أنت الذي تقول: قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم؟ قال: نعم، قال: ما حملك على هذا؟ قال: ما أخذ اللهُ على العلماء من المواثيق ليبيِّنُنُّه للناس ولا يكتمونه، قال: يا حسن أمسك عليك لسانك، وإياك أن يبلغني عنك ما أكره، فأفرق بين رأسك وجسدك.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٢ / ص ٣٤٧) (٣/٤٢٥)

١٤ـ مكتوب هارون الرشيد إلى سفيان الثوري وجوابه:

وعن أبي عمران الجوني قال: لما ولي هارون الرشيد الخلافة، زاره العلماء فهنؤوه بما صار إليه من أمر الخلافة، ففتح بيوت الأموال، وأقبل يجيزهم بالجوائز السنيَّة، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهّاد، وكان يظهر النُّسُك والتقشُّف، وكان مؤاخياً لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري قديماً، فهجره سفيان ولم يزره، فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلو به ويحدثه، فلم يزره، ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه، فاشتد ذلك على هارون، فكتب إليه كتاباً يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر، أما بعد، يا أخي، قد علمت أن الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين، وجعل ذلك فيه وله، واعلم أني قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك، ولم أقطع منها ودَّك، وإني منطو لك على أفضل المحبة والإرادة، ولولا هذه القلادة التي قلَّدنيها اللهُ لأتيتك ولو حبواً، لما أجد لك في قلبي من المحبة، واعلم يا أبا عبد الله أنه ما

بقي من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال، وأعطيتم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرَّت به عيني، وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت لك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته، فإذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل.

فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلُّهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته، فقال: علي برجل من الباب، فأُدخل عليه رجل يقال له: عباد الطالقاني، فقال: يا عباد خذ كتابي هذا فانطلق به إلى الكوفة، فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور، ثم سل عن سفيان الثوري، فإذا رأيته فألق كتابي هذا إليه، وعِ بسمعك وقلبك جميعَ ما يقول، فأحصِ عليه دقيقَ أمره وجليله لتخبرني به.

فأخذ عباد الكتاب، وانطلق به حتى ورد الكوفة، فسأل عن القبيلة فأرشد إليها، ثم سأل عن سفيان فقيل له: هو في المسجد، قال: فأقبلت إلى المسجد، فلما رآني قام قائماً وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير، قال عبَّاد: فوقعت الكلمة في قلبي فخرجت، فلما رآني نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة، فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت، فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته، فسلَّمت، فما رفع أحد إلي رأسه وردُّوا السلام عليَّ برؤوس الأصابع، فبقيت واقفاً فما منهم أحد يعرض عليَّ الجلوس، وقد علاني من هيبتهم الرعدة، ومددت عينيَّ إليهم فقلت: إن المصلي هو سفيان، فرميت بالكتاب إليه، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حيَّة عرضت له في محرابه، فركع وسجد وسلَّم، وأدخل يده في كمه، ولفَّها بعباءته وأخذه، فقلَّبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه، وقال: يأخذه بعضكم يقرؤه، فإني أستغفر الله أن أمسَّ شيئاً مسَّه ظالم بيده.

قال عباد: فأخذه بعضهم فحلَّه كأنه خائف من فم حية تنهشه، ثم فضَّه وقرأه، وأقبل سفيان يتبسَّم تبسُّم المتعجِّب، فلما فرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فقيل له: يا أبا عبد الله إنه خليفة، فلو كتبت إليه في قرطاس نقي. فقال: اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يُجزى به، وإن كان اكتسبه من

حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا، فيفسد علينا ديننا.

فقيل له: ما نكتب؟

فقال: اكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد، الذي سُلب حلاوة الإيمان. أما بعد: فإني قد كتبت إليك أعرفك أني قد صرمت حبلك، وقطعت ودك، وقليت موضعك، فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين، فأنفقته في غير حقه، وأنفذته في غير حكمه، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إليّ تُشهدني على نفسك. أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى، يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيل الله، وابن السبيل؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهلُ العلم والأرامل والأيتام؟ أم هل رضي بذلك خلقٌ من رعيتك؟ فشدَّ يا هارون مئزرك، وأعدَّ للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً، واعلم أنك ستقف بين يدي الحَكَم العدل، فقد رُزئتَ في نفسك، إذ سلبتَ حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيتَ لنفسك أن تكون ظالماً، وللظالمين إماماً، يا هارون قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك، وتشبَّهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، يشربون الخمور ويضربون من يشربها، ويزنون ويحدُّون الزاني، ويسرقون ويقطعون السارق! أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟ فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، أين الظلمة وأعوان الظلمة، فقُدِّمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكُّهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك، وأنت لهم سابق وإمام إلى النار، كأني بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المشاق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة على سيئاتك، بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاحتفظ بوصيتي، واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصح غاية، فاتق

الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمَّته، وأحسن الخلافة عليهم، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك، وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزوَّد زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته، فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه، والسلام.

قال عباد: فألقي إليَّ الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم، فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة، وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت: يا أهل الكوفة، فأجابوني، فقلت لهم: يا قوم من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله؟ فأقبلوا إليَّ بالدنانير والدراهم، فقلت: لا حاجة لي في المال، ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية، قال: فأتيت بذلك، ونزعت ما كان عليَّ من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله، حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافياً راجلاً، فهزأ بي من كان على باب الخليفة، ثم استؤذن لي فلما دخلت عليه مجلسه، وبصر بي على تلك الحالة، قام وقعد، ثم قام قائماً، وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول: انتفع الرسول وخاب المرسل، مالي وللدنيا، مالي ولملك يزول عني سريعاً؟ ثم ألقيت الكتاب إليه منشوراً كما دفع إليَّ.

فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشهق، فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، لقد اجترأ عليك سفيان، فلو وجَّهت إليه فأثقلته بالحديد، وضيَّقت عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره.

فقال هارون: اتركونا يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه، وإن سفيان أمة وحده، فاتركوا سفيان وشأنه.

ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كلِّ صلاة حتى توفي رحمه الله. فرحم الله عبداً نظر لنفسه، واتقى الله فيما يقدم عليه غداً من عمله، فإنه عليه يحاسَب، وبه يجازى، والله ولي التوفيق.

** ** **

من الجزء الثالث

إحياء علوم الدين - (ج ٣ / ص ١٠) (٥٢٢/٣)

١ـ مهمَّة في بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته، عليك بالمطالعة والعمل بها لتعرف نفسك، والله الموفق، وهو ولي التوفيق:

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته:

اعلم أن الإنسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف، وهي: الصفات السبُعيَّة، والبهيميَّة، والشيطانيَّة، والربانية. فهو من حيث سُلِّط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجُّم على الناس بالضرب والشتم؛ ومن حيث سُلِّطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره؛ ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فإنه يدَّعي لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء، والاستعلاء، والتخصص، والاستبداد بالأمور كلها، والتفرُّد بالرئاسة، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع، ويشتهي الاطِّلاع على العلوم كلها؛ بل يدَّعي لنفسه العلم، والمعرفة، والإحاطة بحقائق الأمور، ويفرح إذا نُسب إلى العلم، ويحزن إذا نُسب إلى الجهل؛ والإحاطة بجميع الحقائق، والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق، من أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك؛ ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز، مع مشاركته لها في الغضب والشهوة، حصلت فيه شيطانية، فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشرِّ، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشر في معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين.

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة - أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية - وكل ذلك مجموع في القلب. فكأن المجموع في إهاب الإنسان: خنزير وكلب وشيطان وحكيم.

فالخنزير هو الشهوة، فإنه لم يكن الخنزير مذموماً للونه وشكله وصورته، بل لجشعه وكلبه وحرصه.

والكلب هو الغضب، فإن السبع الضاري والكلب العقور ليس كلباً وسبعاً باعتبار

الصورة واللون والشكل، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر، وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه، وحرص الخنزير وشبقه، فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر، والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء.

والشيطان لا يزال يهيِّج شهوة الخنزير وغيظ السبع، ويغري أحدهما بالآخر، ويحسِّن لهما ما هما مجبولان عليه.

والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره، بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه، إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة، ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه، ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن، وجرى الكلُّ على الصراط المستقيم، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب، فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير.

وهذا حال أكثر الناس مهما كان، أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء، والعجب منه أن ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة، ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله، ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشَفين إما في النوم أو اليقظة، لرأى نفسه ماثلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرة وراكعاً أخرى، ومنتظراً لإشارته وأمره؛ فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته، انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته، أو رأى نفسه مثلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه، مدققاً بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته، وهو بذلك ساع في مسرَّة شيطانه، فإنه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب، ويبعثهما على استخدامه، فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما، فليراقب كلُّ عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعياً طول النهار في عبادة هؤلاء، وهذا غاية الظلم، إذ جعل المالك مملوكاً، والرب مربوباً، والسيد عبداً، والقاهر مقهوراً، إذ العقل هو المستحقُّ للسيادة والقهر والاستيلاء، وقد سخَّره لخدمة هؤلاء الثلاثة، فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعاً وريناً مهلكاً للقلب ومميتاً له.

أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها.

وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهوُّر والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها.

وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب، فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها. ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية، لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب، ولانتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة وردِّه إلى حدِّ الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفةُ الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها.

فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب. أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ونوراً وضياءً، حتى يتلألأ فيه جلية الحق، وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه» [أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة ﵂ وإسناده جيد] وبقوله صلى الله عليه وسلم: «من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ» [قال العراقي: لم أجد له أصلاً. وقال الزبيدي: أخرجه الإمام أحمد في الزهد من قول أبي الجلد] وهذا القلب هو الذي يستقرُّ فيه الذكر، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسودَّ ويظلم، ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالى، وهو الطبع

وهو الرَّيْن، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال عز وجل: ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب، كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومهما تراكمت الذنوب طُبع على القلوب، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين، ويستهين بأمر الآخرة، ويستعظم أمر الدنيا، ويصير مقصور الهم عليها. فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن، ولم يستقر في القلب ولم يحرِّكه إلى التوبة والتدارك، أولئك الذين ﴿يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب، كما نطق به القرآن والسنة.

قال ميمون بن مهران: إذا أذنب العبد ذنباً نكت في قلبه نكته سوداء، فإذا هو نزع وتاب صقل، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه، فهو الران. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «قلب المؤمن أجرد، فيه سراج يزهر، وقلب الكافر أسود منكوس» [أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وهو بعض الحديث الذي يليه] فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب، ومعاصيه مسودات له، فمن أقبل على المعاصي اسودَّ قلبه، ومن أتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه، ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح، ويتنفس ثم تمسح، فإنها لا تخلو عن كدورة. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن؛ وقلب أسود منكوس، فذلك قلب الكافر؛ وقلب أغلف مربوط على غلافه، فذلك قلب المنافق؛ وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدُّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد، فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها» وفي رواية: «ذهبت به» [أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وقد تقدم]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر، وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا، فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بلقاء الله تعالى.

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة:

اعلم أن محل العلم هو القلب؛ أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح، وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء، وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات؛ فكما أن للمتلون صورة، ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها، كذلك لكلِّ معلوم حقيقة، ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها، وكما أن المرآة غير، وصور الأشخاص غير، وحصول مثالها في المرآة غير، فهي ثلاثة أمور. فكذلك ههنا ثلاثة أمور: القلب، وحقائق الأشياء، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه.

فالعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الأشياء، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء، والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة.

وكما أن القبض مثلاً يستدعي قابضاً كاليد، ومقبوضاً كالسيف، ووصولاً بين السيف واليد - بحصول السيف في اليد - ويسمى قبضاً؛ فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علماً، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجوداً ولم يكن العلم حاصلاً، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب، كما أن السيف موجود واليد موجودة، ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلاً، لعدم وقوع السيف في اليد، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد، والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب، فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه، ولكن الحاصل حدُّها وحقيقتها المطابقة لصورتها، فتمثيله بالمرآة أولى؛ لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة، وإنما يحصل مثال مطابق له. وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسمى علماً.

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور:

أحدها: نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل.

والثاني: لخنثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل.

والثالث: لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها، كما إذا كانت الصورة وراء المرآة.

والرابع: لحجاب مرسل بين المرآة والصورة.

والخامس: للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها؛ فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحقِّ في الأمور كلها، وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة:

أولها: نقصان في ذاته كقلب الصبي، فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه.

والثاني: لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه، فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه. وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً» [لم أر له أصلاً]، أي حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها، إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لا محالة إشراق القلب، فلما تقدَّمت السيئة سقطت فائدة الحسنة، لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نوراً. فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له، فليست المرآة التي تتدنَّس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: «من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم» [أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس رضي الله عنه وضعفه].

الثالث: أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق، لأنه ليس يطلب الحق، وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية، أو بتهيئة أسباب المعيشة، ولا يصرف فكره إلى التأمُّل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلَهية، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها، أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها. وإذا كان تقييد الهم بالأعمال، وتفصيل الطاعات مانعاً عن انكشاف جلية الحق، فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها، فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي؟

الرابع: الحجاب، فإن المطيع القاهر لشهواته، المتجرِّد للفكر في حقيقة من الحقائق، قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ صدر الصبا على سبيل

التقليد والقبول بحسن الظن، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق، ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقَّفه من ظاهر التقليد. وهذا أيضاً حجاب عظيم به حُجِب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السماوات والأرض، لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم، ورسخت في قلوبهم، وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقيقة.

الخامس: الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب، فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تتناسب ومطلوبه، حتى إذا تذكرها ورتَّبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب، فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة، بل كلُّ علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص، فيحصل من ازدواجهما علم ثالث، على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى.

ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان، بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص، فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان، وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم. ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلاً بالمرآة، فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا، فلا يظهر فيها القفا، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه، فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها، فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا، وهذه في مقابلتها، بحيث يبصرها ويراعى مناسبة بين وضع المرآتين، حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين، ثم تدرك العين صورة القفا، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة، يعزُّ على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات.

فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور؛ وإلا فكل قلب فهو بالفطرة

صالح لمعرفة الحقائق، لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف. وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال، بها صار مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى. وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد، وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها في الأصل، ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» [متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]؛ وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» [أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه] إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلب وبين الملكوت.

وإليه الإشارة بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء؟ قال: «في قلوب عباده المؤمنين» [لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين...» الحديث؛ فيه بقية بن الوليد وهو مدلِّس، لكنه صرح فيه بالتحديث]، وفي الخبر: «قال الله تعالى: لم يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع» [لم أر له أصلاً، وفي حديث أبي عتبة قبله عند الطبراني بعد قوله: «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينها وأرقها»]، وفي الخبر: أنه قيل: يا رسول الله! من خير الناس؟ فقال: «كل مؤمن مخموم القلب» فقيل: وما مخموم القلب؟ فقال: «هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غلَّ ولا حسد» [أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بإسناد صحيح]، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: رأى قلبي ربي؛ إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه، فيرى جنة عرض بعضها السماوات والأرض، أما جملتها فأكثر سعة من السماوات والأرض؛ لأن السماوات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة، وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة، وأما عالم الملكوت، وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر، فلا نهاية له؛ نعم

الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه، ولكنه في نفسه بالإضافة إلى علم الله لا نهاية له.

وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية؛ لأن الحضرة الربوبية محيطة بكلِّ الموجودات، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله، ومملكته وعبيده من أفعاله، فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم، وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله. وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه، أعني إشراق نور المعرفة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وبقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إيمان العوام، وهو إيمان التقليد المحض.

والثانية: إيمان المتكلمين، وهو ممزوج بنوع استدلال، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام.

والثالثة: إيمان العارفين، وهو المشاهد بنور اليقين.

ونبين لك هذه المراتب بمثال: وهو أن تصديقك بكون زيد مثلاً في الدار له ثلاث درجات:

الأولى: أن يخبرك من جرَّبته بالصدق، ولم تعرفه بالكذب، ولا اتهمته في القول، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع، وهذا هو الإيمان بمجرد التقليد، وهو مثل إيمان العوام، فإنهم لما بلغوا سنَّ التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته، وبعثة الرسل وصدقهم وما جاؤوا به، وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم، لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلِّميهم، وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة، وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين، وليسوا من المقربين، لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين، إذ

الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد، بل من الأعداد، فيما يتعلق بالاعتقادات، فقلوب اليهود والنصارى أيضاً مطمئنَّة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم، إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لأنهم ألقي إليهم الخطأ، والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطِّلاعهم عليه، ولكن ألقي إليهم كلمة الحق.

الرتبة الثانية: أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار، ولكن من وراء جدار، فتستدل به على كونه في الدار، فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع، فإنك إذا قيل لك: إنه في الدار، ثم سمعت صوته ازددت به يقيناً؛ لأن الأصوات تدلُّ على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص؛ وهذا إيمان ممزوج بدليل، والخطأ أيضاً ممكن أن يتطرق إليه، إذ الصوت قد يشبه الصوت، وقد يمكن التكلُّف بطريق المحاكاة، إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع، لأنه ليس يجعل للتهمة موضعاً، ولا يقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضاً.

الرتبة الثالثة: أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده؛ وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة المقربين والصدِّيقين، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين، ويتميَّزون بمزيَّة بيِّنة يستحيل معها إمكان الخطأ؛ نعم وهم أيضاً يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف.

أما درجات العلوم فمثاله أن يبصر زيداً في الدار عن قرب، وفي صحن الدار وفي وقت إشراق الشمس، فيكمل له إدراكه، والآخر يدركه في بيت، أو من بعد، أو في وقت عشية، فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو؛ ولكن لا يتمثَّل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته، ومثل هذا متصوَّر في تفاوت المشاهدة للأمور الإلَهية.

وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيداً وعمراً وبكراً وغير ذلك، وآخر لا يرى إلا زيداً، فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة؛ فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٣ / ص ٣٠) (٥٦٣/٣)

٢ـ بيان مداخل الشيطان على القلب:

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب:

اعلم أن مثال القلب مثاله مثال حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة، وهو فرض عين على كلِّ عبد مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب، ولا يتوصَّل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة؛ ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرة، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة؛ فإن الغضب هو غول العقل، وإذا ضعفت جند العقل هجم جند الشيطان، ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة. فقد روي أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلَّمك تكليماً، وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب، فاشفع لي إلى ربي أن يتوب علي، فقال موسى: نعم، فلما صعد موسى الجبل وكلَّم ربه عز وجل وأراد النزول، قال له ربه: أدِّ الأمانة، فقال موسى: يا رب عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه، فأوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى قد قضيت حاجتك، مره أن يسجد لقبر آدم حتى يُتاب عليه، فلقي موسى إبليس فقال له: قد قضيت حاجتك، أمرتُ أن تسجد لقبر آدم حتى يُتاب عليك، فغضب واستكبر وقال: لم أسجد له حياً أأسجد له ميتاً؟ ثم قال له: يا موسى إن لك عليَّ حقاً بما شفعت لي إلى ربك، فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهنَّ: اذكرني حين تغضب، فإن روحي في قلبك، وعيني في عينك، وأجري منك مجرى الدم، اذكرني إذا غضبت، فإنه إذا غضب الإنسان نفخت في أنفه فما يدري ما يصنع؛ واذكرني حين تلقى الزحف، فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكِّره زوجته وولده وأهله حتى يولي؛ وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم، فإني رسولها إليك ورسولك إليها، فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك. فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص، فإن الفرار من

الزحف حرص على الدنيا، وامتناعه من السجود لآدم ميتاً هو الحسد، وهو أعظم مداخله. وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم؟ فقال: آخذه عند الغضب وعند الهوى، وقد حكي أن إبليس ظهر لراهب، فقال له الراهب: أي أخلاق بني آدم أعون لك؟ قال: الحدة، فإن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقيل: إن الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه، وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟

ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص؛ فمهما كان العبد حريصاً على كل شيء أعماه حرصه وأصمه، إذ قال صلى الله عليه وسلم: «حبك للشي يعمي ويصم» [أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه بإسناد ضعيف]، ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان، فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر، فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كلَّ ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً وفاحشاً. فقد روي أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين كما أمره الله تعالى، فرأى في السفينة شيخاً لم يعرفه، فقال له نوح: ما أدخلك؟ فقال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك، فقال له نوح: اخرج منها يا عدو الله فإنك لعين، فقال له إبليس: خمس أهلك بهنَّ الناس، وسأحدثك منهنَّ بثلاث، ولا أحدثك باثنتين، فأوحى الله تعالى إلى نوح: أنه لا حاجة لك بالثلاث، فليحدثك بالاثنتين، فقال له نوح: ما الاثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني، هما اللتان لا تخلفاني، بهما أُهلك الناس: الحرص والحسد، فبالحسد لعنت وجعلت شيطاناً رجيماً، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنةُ كلُّها إلا الشجرة، فأصبت حاجتي منه بالحرص.

ومن أبوابه العظيمة: الشِّبَع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً؛ فإن الشِّبَع يقوي الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان. فقد روي أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كلِّ شيء، فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم، فقال: فهل فيها من شيء؟ قال: ربما شبعت فثقَّلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا، قال: لله عليَّ أن لا أملأ بطني من الطعام أبداً، فقال له إبليس: ولله عليَّ أن لا أنصح مسلماً أبداً.

ويقال: في كثرة الأكل ست خصال مذمومة:

أولها: أن يذهب خوف الله من قلبه.

الثاني: أن يذهب رحمة الخلق من قلبه، لأنه يظن أنهم كلهم شباع.

والثالث: أنه يثقل عن الطاعة.

والرابع: أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة.

والخامس: أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس.

والسادس: أن يهيج فيه الأمراض.

ومن أبوابه: حب التزين من الأثاث والثياب والدار؛ فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب، ويستسخره فيها طول عمره، وإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية، فإن بعض ذلك يجرَّه إلى البعض، فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء، إلى أن يساق إليه أجله فيموت، وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى، ويخشى من ذلك سوء العاقبة والخاتمة بالكفر، نعوذ بالله منه.

ومن أبوابه العظيمة: الطمع في الناس؛ لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبِّب إليه التصنُّع والتزيُّن لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس، حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده، فلا يزال يتفكَّر في حيلة التودُّد والتحبُّب إليه، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك. وأقلُّ أحواله الثناء عليه بما ليس فيه، والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثَّل لعبد الله بن حنظلة فقال له: يا بن حنظلة احفظ عني شيئاً أعلمك به، فقال: لا حاجة لي به، قال: انظر فإن كان خيراً أخذت، وإن كان شراً رددت، يا بن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة؟ وانظر كيف تكون إذا غضبت؟ فإني أملكك إذا غضبت.

ومن أبوابه العظيمة: العجلة وترك التثبت في الأمور؛ وقال صلى الله عليه وسلم: «العجلة من الشيطان، والتأنِّي من الله تعالى» [أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه بلفظ «الأناة» وقال: حسن]، وقال عز وجل: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقال تعالى:

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤]؛ وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمُّل وتمهُّل، والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاستعجال يروِّج الشيطان شرَّه على الإنسان من حيث لا يدري. فقد روي أنه لما ولد عيسى ابن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا: أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها، فقال: هذا حادث قد حدث، مكانكم، فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئاً، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد، وإذا الملائكة حافِّين به، فرجع إليهم فقال: إن نبياً قد ولد البارحة، ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها، إلا هذا، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة.

ومن أبوابه العظيمة: الدراهم والدنانير، وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار؛ فإن كلَّ ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقرُّ الشيطان، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب، فلو وجد مئة دينار مثلاً على طريق انبعث من قلبه عشر شهوات تحتاج كلُّ شهوة منها إلى مئة دينار أخرى، فلا يكفيه ما وجد، بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى، وقد كان قبل وجود المئة مستغنياً، فالآن لما وجد مئة ظن أنه صار بها غنياً، وقد صار محتاجاً إلى تسعمائة ليشتري داراً يعمرها، وليشتري جارية، وليشتري أثاث البيت، ويشتري الثياب الفاخرة، وكلُّ شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به، وذلك لا آخر له، فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم، فلا آخر لها سواه. قال ثابت البناني: لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو، فانطلقوا حتى أعيوا، ثم جاؤوا وقالوا: ما ندري؟ قال: أنا آتيكم بالخبر، فذهب ثم جاء وقال: قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، قال: فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون: ما صحبنا قوماً قطُّ مثلَ هؤلاء، نُصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك، فقال لهم إبليس: رويداً بهم، عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا [أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلاً].

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسَّد يوماً حجراً فمرَّ به إبليس فقال: يا عيسى

رغبت في الدنيا؟ فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال: هذا لك مع الدنيا. وعلى الحقيقة من يملك حجراً يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه، فإن القائم بالليل مثلاً للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر، يمكن أن يتوسَّده، فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسَّده، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك بباله، ولا تتحرَّك رغبته إلى النوم. هذا في حجر فكيف بمن يملك المخاد الوثيرة، والفرش الوطيئة، والمنتزهات الطيبة، فمتى ينشط لعبادة الله تعالى؟

ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر؛ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدُّق، ويدعو إلى الادِّخار والكنز والعذاب الأليم، وهو الموعود للمكاثرين، كما نطق به القرآن العزيز. قال خيثمة بن عبد الرحمن: إن الشيطان يقول: ما غلبني ابن آدم غلبة فلن يغلبني على ثلاث: أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، ومنعه من غير حقه. وقال سفيان: ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر، فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل، ومنع من الحق، وتكلَّم بالهوى، وظن بربه ظن السوء.

ومن آفات البخل: الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، والأسواق هي معشش الشياطين. وقال أبو أمامة ﵁: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال: يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيماً، فاجعل لي بيتاً، قال: الحمام، قال: اجعل لي مجلساً، قال: الأسواق ومجامع الطرق، قال: اجعل لي طعاماً، قال: طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه، قال: اجعل لي شراباً، قال: كل مسكر، قال: اجعل لي مؤذناً، قال: المزامير، قال: اجعل لي قرآناً، قال: الشعر، قال: اجعل لي كتاباً، قال: الوشم، قال: اجعل لي حديثاً، قال: الكذب، قال: اجعل لي مصائد، قال: النساء» [أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جداً، ورواه بنحوه من حديث ابن عباس ﵁ بإسناد ضعيف أيضاً].

ومن أبوابه العظيمة: التعصب للمذاهب والأهواء، والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العُبَّاد والفُسَّاق جميعاً، فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق، وكان موافقاً لطبعه، غلبت حلاوته على قلبه، فاشتغل به بكلِّ همته، وهو بذلك فرحان مسرور، يظنُّ أنه يسعى في الدين، وهو ساع في اتباع الشياطين، فترى

الواحد منهم يتعصَّب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو آكل الحرام، ومطلق اللسان بالفضول والكذب، ومتعاط لأنواع الفساد، ولو رآه أبو بكر لكان أولَ عدو له، إذ موالي أبي بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه، وكان من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكفَّ لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه، فأنَّى لهذا الفضولي أن يدَّعي ولاءه وحبَّه ولا يسير بسيرته؟ وترى فضولياً آخر يتعصَّب لعلي رضي الله عنه، وكان من زهد علي وسيرته أنه لبس في خلافته ثوباً اشتراه بثلاثة دراهم، وقطع رأس الكُمَّين إلى الرسغ، وترى الفاسق لابساً الثياب الحرير، ومتجمِّلاً بأموال اكتسبها من حرام، وهو يتعاطى حبَّ علي رضي الله عنه ويدَّعيه، وهو أول خصمائه يوم القيامة، وليت شعري من أخذ ولداً عزيزاً لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه، فأخذ يضربه ويمزِّقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض، وهو مع ذلك يدَّعي حبَّ أبيه وولاءه، فكيف يكون حاله عنده؟

ومعلوم أن الدين والشرع كان أحبَّ إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي سائر الصحابة رضي الله عنهم من الأهل والولد، بل من أنفسهم، والمقتحمون لمعاصي الشرع هم الذين يمزِّقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات، ويتودَّدون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه، فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى؟ لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبُّه الصحابة في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يُجروا على اللسان ذكرَهم مع قُبح أفعالهم؟ ثم إن الشيطان يخيِّل إليهم أنَّ من مات محباً لأبي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محباً لعلي لم يكن عليه خوف، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضي الله عنها: «وهي بَضعة منه» [متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة ﷺ]: «اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً» [متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ] وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء.

وهكذا حكم المتعصِّبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة، فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة، إذ يقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل، لا لأجل الهذيان؛ فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى، ثم ادعيت مذهبي كاذباً؟ وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان

قد أهلك به أكثر العالم، وقد سلمت المدارس لأقوام قلَّ من الله خوفهم، وضعفت في الدين بصيرتهم، وقويت في الدنيا رغبتهم، واشتد على الاستتباع حرصهم، ولم يتمكَّنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصُّب، فحبسوا ذلك في صدورهم، ولم ينبِّهوهم على مكايد الشيطان فيه، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته، فاستمر الناس عليه، ونسوا أمهات دينهم، فقد هلكوا وأهلكوا، فالله تعالى بفضله وسعة رحمته يتوب علينا وعليهم.

وقال الحسن: بلغنا أن إبليس قال: سوَّلت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصي، فقصموا ظهري بالاستغفار، فسوَّلت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله تعالى منها، وهي الأهواء. وقد صدق الملعون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجرُّ إلى المعاصي، فكيف يستغفرون منها؟

ومن عظيم حيل الشيطان: أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: جلس قوم يذكرون الله تعالى، فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم، فلم يستطع، فأتى رفقة أخرى يتحدَّثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم، فقاموا يقتتلون، وليس إياهم يريد، فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم، فتفرقوا عن مجلسهم، وذلك مراد الشيطان منهم.

ومن أبوابه: حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم، ولم يتبحَّروا فيه، على التفكُّر في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا يبلغها حدُّ عقولهم، حتى يشككهم في أصل الدين، أو يخيِّل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها، يصير أحدهم بها كافراً أو مبتدعاً، وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره، يظنُّ ذلك هو المعرفة والبصيرة، وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله، فأشدُّ الناس حماقة أقواهم اعتقاداً في عقل نفسه، وأثبت الناس عقلاً أشدُّهم اتهاماً لنفسه، وأكثرهم سؤالاً من العلماء. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله تبارك وتعالى، فيقول: فمن خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه» [أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى في مسانيدهم، ورجاله ثقات، وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس، فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء، وإنما حقُّ العوام أن

يؤمنوا ويسلِّموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم، ويتركوا العلم للعلماء، فالعامي لو يزني ويسرق كان خيراً له من أن يتكلَّم في العلم، فإنه من تكلَّم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري، كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة، ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا تُحصر، وإنما أردنا بما أوردناه المثال.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢]، فمن يحكم بشرٍّ على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة، فيهلك، أو يقصر في القيام بحقوقه، أو يتوانى في إكرامه، وينظر إليه بعين الاحتقار، ويرى نفسه خيراً منه؛ وكلُّ ذلك من المهلكات، ولأجل ذلك منع الشرع من التعرُّض للتُّهَم، فقال صلى الله عليه وسلم: «اتقوا مواضع التهم» [لم أجد له أصلاً] حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك. روي عن علي بن حسين، أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفاً في المسجد، قالت: فأتيته فتحدَّثت عنده، فلما أمسيت انصرفت، فقام يمشي معي، فمرَّ به رجلان من الأنصار، فسلَّما ثم انصرفا، فناداهما وقال: «إنها صفية بنت حيي رضي الله عنها» فقالا: يا رسول الله ما نظنَّ بك إلا خيراً، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد، وإني خشيت أن يدخل عليكما» [متفق عليه]، فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما؟ وكيف أشفق على أمته فعلَّمهم طريق الاحتراز من التهمة، حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول: مثلي لا يظن به إلا الخير، إعجاباً منه بنفسه؛ فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم، وبعين السخط بعضهم، ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظنِّ السوء، وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلِّهم إلا الشر؛ فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب، فاعلم أنه خبيث الباطن، وأن ذلك خبثه يترشَّح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حقِّ كافة الخلق. فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب، ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه، وفي هذا القدر ما

ينبِّه على غيره، فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله.

فإن قلت: فما العلاج في دفع الشيطان؟ وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى، وقول الإنسان: لا حول ولا قوة إلا بالله؟

فاعلم: أن علاج القلب في ذلك سدُّ هذه المداخل، وتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة، وذلك مما يطول ذكره. وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات، وتحتاج كلُّ صفة إلى كتاب منفرد على ما سيأتي شرحه.

نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات، كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات، ولم يكن له استقرار، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى؛ لأن حقيقة الذكر لا تتمكَّن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى، وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب، فلا يدفع سلطان الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، خصص بذلك المتقي، فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، فمجرَّد الصوت يدفعه؛ فإن كان بين يديك لحم وهو جائع، فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب، فلم يتمكَّن من سويدائه، فيستقر الشيطان في سويداء القلب. وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة، فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات، بل لخلوها بالغفلة عن الذكر، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر.

قال أبو هريرة ﷺ: التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر، فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاسٍ، وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عارٍ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: ما لك مهزول؟ قال: أنا مع رجل إذا أكل سمى الله، فأظل جائعاً؛ وإذا شرب سمى الله، فأظل عطشاناً؛ وإذا لبس سمى الله، فأظل عرياناً؛ وإذا ادهن سمى الله، فأظل شعثاً؛ فقال شيطان الكافر: لكني مع رجل لا يفعل شيئاً من ذلك، فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه.

وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح: اللهم إنك سلَّطت علينا عدواً بصيراً بعيوبنا، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك، وقنِّطه منا كما قنَّطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك، إنك على كل شيء قدير. قال: فتمثَّل له إبليس يوماً في طريق المسجد فقال له: يا بن واسع هل تعرفني؟ قال: ومن أنت؟ قال: أنا إبليس، فقال: وما تريد؟ قال: أريد أن لا تعلم أحداً هذه الاستعاذة، ولا أتعرَّض لك، قال: والله لا أمنعها ممن أرادها فاصنع ما شئت.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان شيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار، فيقوم بين يديه وهو يصلي، فيقرأ ويتعوَّذ فلا يذهب، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له: «قل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر، من شرِّ ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن». فقال ذلك، فطفئت شعلته، وخرَّ على وجهه [أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلاً؛ ولمالك في الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلاً؛ ووصله ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن عياش الشامي، عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ ورواه أحمد والبزار من حديث عبد الرحمن بن خنبش، وقيل له: كيف صنع رسول الله ﷺ ليلة كادته الشياطين؟ فذكر نحوه].

وقال الحسن: نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إن عفريتاً من الجن يكيدك، فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي» [أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان هكذا مرسلاً]. وقال صلى الله عليه وسلم: «أتاني الشيطان فنازعني، ثم نازعني، فأخذت بحلقه، فوالذي بعثني بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدي، ولولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لأصبح طريحاً في المسجد» [أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الشعبي مرسلاً هكذا؛ وللبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إن عفريتاً من الجن تفلَّت علي البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه...» الحديث؛ والنسائي في الكبرى من حديث عائشة رضي الله عنها: «كان يصلي، فأتاه الشيطان، فأخذه فصرعه فخنقه، قال: حتى وجدت برد لسانه على يدي...» الحديث؛ وإسناده جيد]، وقال صلى الله عليه وسلم: «ما سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير الذي سلكه عمر» [متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بلفظ: «يا بن الخطاب ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً...» الحديث]؛ وهذا لأن القلوب كانت مطهَّرة عن

مرعى الشيطان وقوته، وهي الشهوات، فمهما طمعت في أن ينـدفع الـشيطان عنـك بمجـرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان محالاً، وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبـل الاحتماء، والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة، ويطمع أن ينفعه الـدواء كمـا نفـع الـذي شـربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة، والـذكر الـدواء، والتقـوى احتمـاء، وهـي تخلـي القلـب عـن الشهوات، فإذا نزل الذكر قلباً فارغاً عن غير الذكر، اندفع الشيطان كما تندفع العلـة بنـزول الدواء في المعـدة الخاليـة عـن الأطعمـة. قـال الله تعـالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقـال تعـالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]، ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه، وإن ذكر الله بلسانه. وإن كنت تقول: إن الحـديث قـد ورد مطلقـاً بـأن الـذكر يطـرد الـشيطان، ولـم تفهـم أن أكثـر عمومـات الـشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين، فانظر إلى نفسك، فلـيس الخبـر كالعيـان، وتأمَّـل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة؛ فراقب قلبك إذا كنت فـي صـلاتك كيـف يجاذبـه الـشيطان إلـى الأسـواق وحـساب العـالمين وجـواب المعانـدين، وكيـف يمـرُّ بـك فـي أوديـة الـدنيا ومهالكها، حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته مـن فـضول الـدنيا إلا فـي صـلاتك، ولا يـزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت؟ فالصلاة محكُّ القلوب فيها يظهر محاسـنها ومـساوئها؛ فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا، فلا جرم لا ينطرد عنـك الـشيطان، بل ربما يزيد عليك الوسواس، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليـك الـضرر، فـإن أردت الخلاص من الشيطان فقدِّم الاحتماء بالتقوى، ثم أردفه بدواء الـذكر، يفـرُّ الـشيطان منك كمـا فـرَّ مـن عمـر رضـي الله عنـه. ولـذلك قـال وهـب بـن منبـه: اتـق الله، ولا تـسبَّ الشيطان في العلانية، وأنت صديقه في السر؛ أي أنت مطيع لـه. وقـال بعـضهم: يـا عجبـاً لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، ويطيع اللعين بعد معرفتـه بطغيانـه. وكمـا أن الله تعالى قال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وأنت تدعوه ولا يستجيب لك، فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء.

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا، وقـد قـال تعـالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟ قال: لأن قلوبكم ميتة، قيل: وما الذي أماتها؟ قال: ثمان خـصال: عـرفتم حـقَّ الله ولـم تقوموا بحقَّه، وقـرأتم القـرآن ولـم تعملـوا بحـدوده، وقلـتم: نحـبُّ رسـول الله صـلى الله عليـه

وسلم، ولم تعملوا بسنَّته، وقلتم: نخشى الموت، ولم تستعدوا له، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فواطأتموه على المعاصي، وقلتم: نخاف النار، وأرهقتم أبدانكم فيها، وقلتم: نحبُّ الجنة ولم تعملوا لها، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم، وافترشتم عيوب الناس أمامكم، فأسخطتم ربكم، فكيف يستجيب لكم؟

فإن قلت: فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون؟

فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة، فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته. كُلِ البقل من حيث يؤتى، ولا تسأل عن المبقلة، ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار، أنهم جنود مجنَّدة، وأن لكلِّ نوع من المعاصي شيطاناً يخصه ويدعو إليه، فأما طريق الاستبصار فذكره يطول، ويكفيك القدر الذي ذكرناه، وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب، كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان.

وأما الأخبار: فقد قال مجاهد: لإبليس خمسة من الأولاد، قد جعل كلَّ واحد منهم على شيء من أمره: ثبر، والأعور، ومسوط، وداسم، وزلنبور. فأما ثبر: فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور وشقِّ الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية. وأما الأعور: فإنه صاحب الزنا يأمر به ويزيِّنه. وأما مسوط: فهو صاحب الكذب. وأما داسم: فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم. وأما زلنبور: فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظلِّمين. «وشيطان الصلاة يسمى خنزب» [أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه] «وشيطان الوضوء يسمى الولهان» [أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه وقال: غريب، وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث] وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة.

وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة. وقد ذكرنا في كتاب الشكر السرَّ في كثرة الملائكة، واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به، وقد قال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وُكِّل بالمؤمن مئة وستون ملكاً يذبُّون عنه ما لم يقدَّر عليه من ذلك؛ للبصر سبعة أملاك يذبُّون عنه كما يُذَبُّ الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كلِّ سهل وجبل، كلٌّ باسطٌ يده فاغرٌ فاه، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين» [أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان، والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف].

وقال أيوب بن يونس بن يزيد: بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن، ثم ينشؤون معهم. وروى جابر بن عبد الله ﷺ: أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض قال: يا رب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة، إن لم تعني عليه لا أقوى عليه، قال: لا يولد لك ولد إلا وكِّل به ملك، قال: يا رب زدني، قال: أجزي بالسيئة سيئة وبالحسنة عشراً إلى ما أريد، قال: رب زدني، قال: باب التوبة مفتوح ما دام الروح في الجسد، قال إبليس: يا رب هذا العبد الذي كرَّمته علي إن لا تعني عليه لا أقوى عليه، قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد، قال: يا رب زدني، قال: تجري منهم مجرى الدم، وتتخذون صدورهم بيوتاً، قال: رب زدني، قال: ﴿بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهواء، وصنف عليهم الثواب والعقاب. وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة لا ظل إلا ظله» [أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان؛ وابن حبان في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان، وضعفه؛ والحاكم نحوه مختصراً: «في الجن فقط ثلاثة أصناف» من حديث أبي ثعلبة الخشني ﷺ وقال: صحيح الإسناد].

وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن إبليس تمثَّل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال: إني أريد أن أنصحك، قال: لا حاجة لي في نصحك، ولكن أخبرني عن بني آدم، قال: هم عندنا ثلاثة أصناف: أما صنف منهم وهم أشدُّ الأصناف علينا، نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه، فيفزع إلى الاستغفار والتوبة، فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه، ثم نعود إليه فيعود، فلا نحن نيئس منه، ولا نحن ندرك منه حاجتنا، فنحن منه في عناء؛ وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم، نقلِّبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم؛ وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء.

فإن قلت: فكيف يتمثَّل الشيطان لبعض الناس دون البعض، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يُرى بصور

مختلفة؟ وكيف يُرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين؟

فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما، ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة، فما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام في صورته إلا مرتين، وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته، فواعده بالبقيع، وظهر له بحراء فسدَّ الأفق من المشرق إلى المغرب، ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى [أخرجه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها: وسئلت هل رأى محمد ربه؟ وفيه: ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين]، وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالباً [أخرجه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها وسئلت: فأين قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] قالت: ذاك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل... الحديث]، فكان يراه صلوات الله عليه في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه، وكان رجلاً حسن الوجه [أخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة رضي الله عنها، فجعل يحدِّث، ثم قام، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة: «من هذا؟» قالت: دحية... الحديث].

والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته، فيتمثَّل الشيطان له في اليقظة، فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه، فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته، كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين. وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواسِّ بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام، فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام، كما روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور، يرى داخله من خارجه، ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر، بين منكبه وأذنه، له خرطوم طويل دقيق، قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى خنس. ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها، وكانت الجيفة مثال الدنيا. وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية، فإن القلب لا بد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت، وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة، لأن أحدهما متصل بالآخر.

وقد بينا أن القلب له وجهان: وجه إلى عالم الغيب، وهو مدخل الإلهام والوحي، ووجه إلى عالم الشهادة؛ فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة، لأن عالم الشهادة كله متخيلات، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحسِّ، فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى، حتى يرى شخصاً جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر، لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس. أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب، فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها، لأن الصورة في عالم الملكوت تابعة للصفة وموافقة لها، فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة، فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها، ويرى الملك في صورة جميلة، فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق، ولذلك يدلُّ القرد والخنزير في النوم على مثال خبيث، وتدلُّ الشاة على إنسان سليم الصدر، وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير. وهذه أسرار عجيبة، وهي من أسرار عجائب القلب، ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة. وإنما المقصود أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب، وكذلك الملك، تارة بطريق التمثيل والمحاكاة، كما يكون ذلك في النوم، وتارة بطريق الحقيقة. والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى – هو مثال المعنى لا عين المعنى – إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة، وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله، كالنائم.

** ** **

إحياء علوم الدين – (ج ٣ / ص ٢١٧) (٤/٢٩١)

٣ـ (حول قول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ...﴾ ويليها نبذة من مناقب سيدنا أويس القرني رضي الله عنه وعنا بجاهه الشريف).

الدنيا حظ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة، ويعبَّر عنه بالهوى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ـ٤١]. ومجامع الهوى خمسة أمور: وهي ما جمعه الله تعالى في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، والأعيان التي تحصل منها

هـذه الخمـسة سـبعة، يجمعهـا قولـه تعـالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

فقد عرفت أن كلَّ ما هو لله فليس من الدنيا، وقدر ضرورة القوت وما لا بـد منـه مـن مسكن وملبس هو لله، إن قصد به وجه الله، والاستكثار منه تـنعُّم، وهـو لغيـر الله؛ وبـين التنعُّم والضرورة درجة يعبَّر عنها بالحاجة؛ ولها طرفان وواسطة: طرف يقرب مـن حدِّ الضرورة فلا يضر، فإن الاقتصار على حدِّ الضرورة غير ممكن، وطرف يـزاحم جانـب التنعُّم ويقرب منه، وينبغي أن يحذر منه، وبينهما وسائط متشابهة، ومن حام حـول الحمـى يوشك أن يقع فيه.

والحزم في الحذر والتقوى والتقرُّب من حدِّ الضرورة ما أمكن، اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حدِّ الضرورة، حتى إن أويساً القرنـي كان يظنُّ أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه، فبنوا له بيتاً على باب دارهم، فكان يأتي عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجهاً نهاراً، وكان يخرج أول الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة، وكان طعامه أن يلتقط النوى، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره، فإن أصاب ما يقوته من الحشف تصدَّق بالنوى، وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه ما يقوته، وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية، فيغسلها في الفرات، ويلفق بعضها إلى بعض، ثم يلبسها، فكان ذلك لباسه، وكان ربما مرَّ الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون، فيقول لهم: يا أخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني فارموني بأحجار صغار، فإني أخاف أن تُدموا عقبي، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء، فهكذا كانت سيرته. ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال: «إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن» [أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث قال فيه: «وأجد نفس ربكم من قبل اليمن» ورجاله ثقات]، إشارة إليه رحمه الله، ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: أيها الناس من كان منكم من أهل العراق فليقم، قال: فقاموا، فقال: اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة، فجلسوا، فقال: اجلسوا إلا من كان من مراد، فجلسوا، فقال: اجلسوا إلا من كان من قرن، فجلسوا كلهم

إلا رجلاً واحداً، فقال له عمر: أقرني أنت؟ فقال: نعم، فقال: أتعرف أويس بن عامر القرني؟ فوصفه له، فقال: ونعم وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين! والله ما فينا أحمق منه، ولا أجن منه، ولا أوحش منه، ولا أدنى منه، فبكى عمر رضي الله تعالى عنه ثم قال: ما قلت ما قلت إلا لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر» [رويناه في جزء ابن السماك من حديث أبي أمامة ﷺ: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر» وإسناده حسن، وليس فيه ذكر لأويس، بل في آخره: فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان ﷺ]، فقال هرم بن حيان: لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب ﷺ قدمت الكوفة، فلم يكن لي همٌّ إلا أن أطلب أويساً القرني وأسأل عنه، حتى سقطت عليه جالساً على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه، قال: فعرفته بالنعت الذي نعت لي، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة، محلوق الرأس، كث اللحية، متغيِّر جداً، كريه الوجه، متهيب المنظر، قال: فسلَّمت عليه، فردَّ عليَّ السلام ونظر إلي، فقلت: حيَّاك الله من رجل ومددت يدي لأصافحه، فأبى أن يصافحني، فقلت: رحمك الله يا أويس وغفر لك، كيف أنت رحمك الله؟ ثم خنقتني العبرة من حبي إياه ورقَّتي عليه، إذ رأيت من حاله ما رأيت، حتى بكيت وبكى، فقال: وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان، كيف أنت يا أخي ومن دلَّك علي؟ قلت: الله، فقال: لا إله إلا الله، سبحان الله، ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨]، قال: فعجبت حين عرفني، ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآني! فقلت: من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم؟ قال: نبَّأني العليم الخبير، وعرفت روحي روحك حين كلَّمت نفسي نفسك، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد، وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضاً ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرَّقت بهم المنازل، قال: قلت: حدثني رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث أسمعه منك، قال: إني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تكن لي معه صحبة بأبي وأمي رسول الله ﷺ، ولكن رأيت رجالاً قد صحبوه، وبلغني من حديثه كما بلغك، ولست أحبُّ أن أفتح على نفسي هذا الباب أن أكون محدثاً أو مفتياً أو قاضياً، في نفسي شغل عن الناس يا هرم بن حيان! فقلت: يا أخي اقرأ عليَّ آية من القرآن أسمعها منك، وادع لي بدعوات، وأوصني بوصية أحفظها عنك، فإني أحبك في الله حباً شديداً، قال: فقام وأخذ بيدي على شاطئ الفرات ثم قال: أعوذ

بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم بكى، ثم قال: قال ربي، والحق قول ربي، وأصدق الحديث حديثه، وأصدق الكلام كلامه، ثم قرأ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ـ٣٩] حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٢]، فشهق شهقة ظننت أنه قد غشي عليه، ثم قال: يا بن حيان مات أبوك حيان، وتوشك أن تموت، فإما إلى جنة وإما إلى نار، ومات أبوك آدم، وماتت أمك حواء، ومات نوح، ومات إبراهيم خليل الرحمن، ومات موسى نجيُّ الرحمن، ومات داود خليفة الرحمن، ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم، وهو رسول رب العالمين، ومات أبو بكر خليفة المسلمين، ومات عمر بن الخطاب أخي وصفيِّي، ثم قال: يا عمراه يا عمراه، قال: فقلت: رحمك الله إن عمر لم يمت، قال: فقد نعاه إليَّ ربي ونعى إليَّ نفسي! ثم قال: أنا وأنت في الموتى كأنه قد كان، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دعا بدعوات خفيات، ثم قال: هذه وصيتي إياك يا هرم بن حيان، كتاب الله، ونهج الصالحين المؤمنين، فقد نعيت إليَّ نفسي ونفسك، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعاً، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة، ادع لي ولنفسك، ثم قال: اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك، وزارني من أجلك، فعرِّفني وجهه في الجنة، وأدخله عليَّ في دارك دار السلام، واحفظه ما دام في الدنيا حيثما كان، وضمَّ عليه ضيعته، وأرضه من الدنيا باليسير، وما أعطيته من الدنيا فيسِّره له تيسيراً، واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين، واجزه عني خير الجزاء، ثم قال: أستودعك الله يا هرم بن حيان، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبني، فإني أكره الشهرة، والوحدة أحبُّ إليَّ، إني كثير الهمِّ شديد الغمِّ مع هؤلاء الناس ما دمت حياً، فلا تسأل عني ولا تطلبني، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرك ولم ترني، فاذكرني وادع لي، فإني سأذكرك وأدعو لك إن شاء الله، انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا. فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبى عليَّ، وفارقته فبكى وأبكاني، وجعلت أنظر في قفاه حتى دخل بعض السكك، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحداً يخبرني عنه بشيء، رحمه الله وغفر له.

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا.

وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا، ومن سيرة الأنبياء والأولياء، أن حدَّ الدنيا كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء، إلا ما كان لله عز وجل من ذلك، وضد الدنيا الآخرة، وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قوة طاعة الله، وذلك ليس من الدنيا. ويتبين هذا بمثال: وهو أن الحاج إذ حلف أنه في طريق الحج لا يشتغل بغير الحج، بل يتجرَّد له، ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل ما لا بد للحج منه، لم يحنث في يمينه، ولم يكن مشغولاً بغير الحج، فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر، فتعهُّد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا. نعم إذا قصد تلذُّذ البدن وتنعُّمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفاً عن الآخرة، ويخشى على قلبه القسوة. قال الطنافسي: كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاوياً، فسمعت في الليلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة والنوم: ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه. فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك. فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٣ / ص ٢٦٥) (٤/٣٩٥)

٤ـ قصة ثعلبة:

ويشهد له أيضاً ما روي عن أبي أمامة الباهلي ﵁: أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: «يا ثعلبة قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه» قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: «يا ثعلبة أما لك فيَّ أسوة؟ أما ترضى أن تكون مثل نبي الله تعالى؟ أما والذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت» قال: والذي بعثك بالحقِّ نبياً لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كلَّ ذي حق حقَّه، ولأفعلن ولأفعلن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً»؛ فاتَّخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحَّى عنها فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة ويدع ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، وطفق

يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال: «ما فعل ثعلبة بن حاطب؟» فقيل: يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة؛ وأخبر بأمره كله، فقال: «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!» قال: وأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم على الصدقة، وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة، وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين، وقال: «مرا بثعلبة بن حاطب، وبفلان - رجل من بني سليم - وخذا صدقاتهما» فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إليَّ، فانطلقا نحو السليمي فسمع بهما، فقام إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها؛ فلما رأوها قالوا: لا يجب عليك ذلك، وما نريد نأخذ هذا منك، قال: بلى خذوها، نفسي بها طيبة، وإنما هي لتأخذوها، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرّا بثعلبة، فسألاه الصدقة فقال: أروني كتابكما، فنظر فيه فقال: هذه أخت الجزية! انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلِّماه، ودعا للسليمي، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، وبالذي صنع السليمي، فأنزل الله تعالى في ثعلبة: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧]، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ما أنزل الله فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال: لا أم لك يا ثعلبة! قد أنزل الله فيك كذا كذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا عملك، أمرتك فلم تطعني» فلما أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله، فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأبى أن يقبلها منه، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأبى أن يقبلها منه،

وتوفي ثعلبة بعد في خلافه عثمان [أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

قال الإمام الزبيدي رحمه الله تعالى: رواه أيضاً ابن قانع في الصحابة ١/١٢٤. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الإصابة ١/٤٠٠: وفي كون صاحب القصة ـ إن صحَّ الخبر ولا أظنه يصح ـ هو البدري المذكور نظر، وقد تأكَّدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبي: إن البدري استشهد بأُحد، ويقوِّي ذلك أيضاً أن ابن مردويه روى في تفسيره، من طريق عطية، عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية المذكورة، قال: وذلك أن رجلاً يقال له: ثعلبة بن أبي حاطب من الأنصار، أتى مجلساً فأشهدهم، فقال: لئن آتاني الله من فضله... الآية، فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة بن أبي حاطب، والبدري اتفقوا على أنه ثعلبة بن حاطب، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية»، وحكى عن ربِّه تبارك وتعالى أنه قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله تعالى نفاقاً في قلبه، وينزل به ما نزل، فالظاهر أنه غيره، والله أعلم].

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٣ / ص ٢٦٧) (٤/٣٩٧)

٥ـ قصة عيسى عليه السلام مع صاحبه حين أكل الرغيف وسأل عنه عليه السلام:

وقد روي عن جرير عن ليث قال: صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السلام فقال: أكون معك وأصحبك، فانطلقا فانتهيا إلى شطِّ نهر، فجلسا يتغدَّيان ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، قال: فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها، قال: فدعا أحدهما فأتاه، فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل، ثم قال للخشف: قم بإذن الله، فقام فذهب، فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية: من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، ثم انتهيا إلى وادي ماء، فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء، فلما جاوزوا قال له: أسألك بالذي أراك هذه الآية: من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، فانتهيا إلى مفازة فجلسا، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع تراباً وكثيباً، ثم قال: كن ذهباً بإذن الله تعالى، فصار ذهباً، فقسمه ثلاثة أثلاث، ثم قال: ثلث لي، وثلث لك، وثلث لمن أخذ الرغيف، فقال: أنا الذي أخذت الرغيف، فقال: كلُّه لك، وفارقه

عيسى عليه السلام، فانتهى إليه رجلان في المفازة ومعه المال، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه، فقال: هو بيننا أثلاثاً، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاماً نأكله، قال: فبعثوا أحدهم، فقال الذي بعث: لأي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال؟ لكني أضع في هذا الطعام سماً فأقتلهما وآخذ المال وحدي، قال: ففعل ذلك، ورجع ومعه الطعام المسموم، وقال ذانك الرجلان: لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال؟ ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا، قال: فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا، فبقي ذلك المال في المفازة، وأولئك الثلاثة عنده قتلى، فمرَّ بهم عيسى عليه السلام وهم على تلك الحالة، فقال لأصحابه: هذه الدنيا فاحذروها.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٣ / ص ٣١٨) (٤/٥٠٢)

٦ـ قال عيسى عليه السلام واعظاً لأهل العلم:

.. ثم الواعظ هو الذي يرغِّب في الآخرة ويزهِّد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته. فأما ما أحدثه الوعَّاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين، وتخويف للمسلمين، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان، وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر، يبطن في نفسه حبَّ القبول ولا يقصد غيره، وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حقِّ علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله. ولهذا قال المسيح عليه السلام: يا علماء السوء! تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون، وتدرسون ما لا تعملون، فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني، وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، بحقٍّ أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل، يخرج منه الدقيق الطيب، ويبقى فيه النخالة، كذلك أنتم، تُخرجون الحكم من أفواهكم، ويبقى الغل في صدوركم، يا عبيد الدنيا! كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته، ولا تنقطع منها رغبته؟ بحقٍّ أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم، والعمل تحت

أقدامكم، بحقٍّ أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحبُّ إليكم من صلاح الآخرة، فأي ناس أخس منكم لو تعلمون، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين، وتقيمون في محلة المتحيرين! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم، مهلاً مهلاً! ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم؟! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة! يا عبيد الدنيا، لا كعبيد أتقياء، ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم، فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبَّكم على مناخركم في النار، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان، حفاة عراة فرادى، فيوقفكم على سوآتكم، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم.

وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال: هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس، وفتنة على الناس، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها، وآثروها على الآخرة، وأذلوا الدين للدنيا، فهم في العاجل عار وشين، وفي الآخرة هم الخاسرون.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٣ / ص ٣٤٨) (٥٦٣/٤)

٧- بيان معالجة الكبر، من تأمَّل عرف نفسه وربَّه:

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له:

اعلم أن الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمنِّي، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له.

وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله من سنخه، وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه، ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه

مهما عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذلُّ من كل ذليل، وأقلُّ من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول، وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول، ولكن نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله، فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فُتحت بصيرته، وقد قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧-٢٢] فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان، وإلى آخر أمره، وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية، أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، وقد كان في حيز العدم دهوراً، بل لم يكن لعدمه أول، وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها، إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظم لحماً، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئاً مذكوراً، فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخسِّ الأوصاف والنعوت! إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً، بل خلقه جماداً ميتاً، لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

ومعنى قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ١-٢] كذلك خلقه أولاً، ثم امتنَّ عليه فقال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت. وكذلك قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣] ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً تراباً أولاً، ونطفة ثانياً، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعدما كان فاقداً للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه

بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبَّره وصوَّره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة، إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجوداً بعد العدم، وحياً بعد الموت، وناطقاً بعد البكم، وبصيراً بعد العمى، وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعد الجهل، ومهدياً بعد الضلال، وقادراً بعد العجز، وغنياً بعد الفقر! فكان في ذاته لا شيء، وأي شيء أخس من لا شيء؟ وأي قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار بالله شيئاً. وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام، والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضاً، ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه، ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا. ولذلك امتن عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨-١٠] وعرف خسته أولاً فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ ثم ذكر مِنَّته عليه فقال: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩] ليدوم وجوده بالتناسل، كما حصل وجوده أولاً بالاختراع.

فمن كان هذا بدؤه، وهذه أحواله، فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء، وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم لو أكمله وفوَّض إليه أمره، وأدام له الوجود باختياره، لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلَّط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة، والأسقام العظيمة، والآفات المختلفة، والطباع المتضادة، من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى، رضي أم سخط، فيجوع كرهاً، ويعطش كرهاً، ويمرض كرهاً، ويموت كرهاً، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار، فلا يملك قلبه قلبه، ولا نفسه نفسه، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذُّ

الأطعمة وتهلكه وترديه، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره، وتفلج أعضاؤه، ويختلس عقله، ويختطف روحه، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل، إن ترك بقي، وإن اختطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه، ولا شيء من غيره، فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ٢١-٢٢]، ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جماداً كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأول نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميماً رفاتاً، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما، وبخديه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان، ويهرب منه لشدة الإنتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير تراباً يعمل منه الكيزان، ويعمل منه البنيان، فيصير مفقوداً بعدما كان موجوداً، وصار كأن لم يغن بالأمس حصيداً، كما كان في أول أمره أمداً مديداً، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً، لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أهوال القيامة، فينظر إلى قيامة قائمة، وسماء مشققة ممزقة، وأرض مبدلة، وجبال مسيرة، ونجوم منكدرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة، وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر، وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة، فيقال له: اقرأ كتابك، فيقول: وما هو؟ فيقال: كان قد وُكِّل بك في حياتك التي كنت تفرح بها، وتتكبر بنعيمها، وتفتخر بأسبابها، ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله، من قليل وكثير، ونقير وقطمير، وأكل وشرب، وقيام وقعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك، فهلمَّ إلى الحساب، واستعدَّ للجواب، أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب، قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، فهذا آخر أمره، وهو

معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢]، فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر والأشر؟ فقد ظهره له أول حاله ووسطه، ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً، ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً، وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع، إذ أوله التراب وآخره التراب، وهو بمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق.

ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمن كان هذا حاله في العاقبة - إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو - كيف يفرح ويبطر؟ وكيف يتكبَّر ويتجبَّر؟ وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً؟ وأيُّ عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه وقدرته؟! والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله. أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحقَّ بجناياته ضرب ألف سوط، فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض، وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق، وليس يدري أيعفى عنه أم لا؟ كيف يكون ذلُّه في السجن؟ أفترى أنه يتكبَّر على من في السجن؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه، وقد استحقَّ العقوبة من الله تعالى، ولا يدري كيف يكون آخر أمره؟ فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً. فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين، ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول: «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد» [رواه البزار من حديث ابن عمر ﵄]. وقيل لسلمان ﵁: لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: إنما أنا عبد، فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً؛ أشار به إلى العتق في الآخرة.

ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً، وقيل: الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها

كانت عماداً للدين، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، حتى قال حكيم بن حزام ﵁: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أخرَّ إلا قائماً، فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم عليه [رواه أحمد في مسنده مقتصراً على هذا وفيه إرسال خفي]، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة، أمروا به، لتنكسر بذلك خيلاؤهم، ويزول كبرهم، ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كلَّ ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه، حتى يصير التواضع له خلقاً، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح، وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت، والقلب من عالم الملكوت.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبُّر بالأسباب السبعة المذكورة، وقد ذكرنا في كتاب ذمِّ الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي، فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبَّر، ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة.

الأول: النسب، فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن هذا جهل من حيث إنه تعزَّز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف ... لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبِّر بالنسب إن كان خسيساً في صفات ذاته، فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ بل لو كان الذي يُنسب إليه حياً لكان له أن يقول: الفضل لي، ومن أنت؟ وإنما أنت دودة خلقت من بولي؟ أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس؟ هيهات! بل هما متساويان، والشرف للإنسان لا للدودة.

الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجدَّه البعيد تراب ذليل، وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ

خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٧ـ٨]، فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام، ثم خمر طينة حتى صار حمأ مسنوناً، كيف يتكبر؟ وأخسُّ الأشياء ما إليه انتسابه، إذ يقال: يا أذل من التراب، ويا أنتن من الحمأة، ويا أقذر من المضغة.

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: افتخر بالقريب دون البعيد، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب، فليحقر نفسه بذلك، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربة فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده؟ فإذن أصله من التراب، وفصله من النطفة، فلا أصل له ولا فصل. وهذه غاية خسة النسب، فالأصل يوطأ بالأقدام، والفصل تغسل منه الأبدان. فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان، ومن عرفه لم يتكبر بالنسب، ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم، وقد أخبره بذلك والداه، فلم يزل فيه نخوة الشرف، فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات، وكشفوا له وجه التلبيس عليه، فلم يبق له شك في صدقهم، أفترى أن ذلك يبقي شيئاً من كبره؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلَّهم، فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره.

فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله، وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب؛ إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب، أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها، لكان يعلم به خسة نفسه، لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزَّه عنها هو في نفسه؟

السبب الثاني: التكبُّر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم؛ ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدِّر عليه تعززه بالجمال، فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردَّد كلَّ يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك

ليعرف قذارته وذلَّه، هذا في حال توسطه.

وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور، من النطفة ودم الحيض، وأخرج من مجرى الأقذار، إذ خرج من الصلب، ثم من الذكر مجرى البول، ثم من الرحم مفيض دم الحيض، ثم خرج من مجرى القذر. قال أنس رحمه الله: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول: خرج أحدكم من مجرى البول مرتين. وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز: ما هذه مشية من في بطنه خراء؟ إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته، وهذا أوله ووسطه.

ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهَّدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهَّد نفسها قط. فإذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن في أقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار، لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن، وكلون الأزهار في البوادي، فبينما هو كذلك إذ صار هشيماً تذروه الرياح، كيف ولو كان جماله باقياً، وعن هذه القبائح خالياً، لكان يجب أن لا يتكبَّر به على القبيح، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له؟ بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأمُّلها.

السبب الثالث: التكبُّر بالقوة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلِّط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كلِّ عاجز، وأذلَّ من كل ذليل، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنفذه منه، وأن بقة لو دخلت في أنفه، أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأن حمى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة؛ فمن لا يطيق شوكة، ولا يقاوم بقة، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة، فلا ينبغي أن يفتخر بقوته! ثم إن قوي الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟

السبب الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار، والتكبر بولاية السلاطين، والتمكن من جهتهم، وكلُّ ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات

الإنسان، كالجمال والقوة والعلم. وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبِّر بماله كأنه متكبِّر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً، والمتكبِّر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه، بنى أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر، فإن تغيَّر عليه كان أذلَّ الخلق، وكلُّ متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل؟ فأفٍّ لشرف يسبقك به اليهودي! وأفٍّ لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً؟ فهذه أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده، وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل، وكلُّ ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك، بل إلى واهبه، إن أبقاه بقي لك، وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء؛ ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره.

ومثاله: أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان، وأن أبويه كانا مملوكين له، فعلم ذلك وحكم به الحاكم، فجاء مالكه فأخذه، وأخذ جميع ما في يده، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكِّل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أنه له مالكاً، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل، قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام، وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله، ولا يعرف طريقاً في الخلاص البتة، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكماله، أم يذل نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير بنفسه، فإنه يرى نفسه كذلك، فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك؛ فمن هذا حاله لا يتكبَّر بقوته وقدرته، إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة. فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة، وهو أهون من علاج التكبُّر بالعلم والعمل، فإنهما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما، ولكن التكبُّر بهما أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس: الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات، وأغلب الأدواء، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند

الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل. ولذلك قال كعب الأحبار: إن للعلم طغياناً كطغيان المال. وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: العالِم إذا زلَّ، زلَّ بزلَّته عالَم، فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل، لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم.

ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عُشره من العالِم، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا، فيطيف به أهل النار فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشر وآتيه» [متفق عليه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما بلفظ: «يؤتى بالرجل...»]. وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب، فقال عز وجل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، أراد به علماء اليهود. وقال في بلعم بن باعوراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ حتى بلغ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوتي بلعم كتاباً، فأخلد إلى شهوات الأرض، أي سكن حبه إليها، فمثَّله بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته، ويكفي العالم هذا الخطر، فأيُّ عالم لم يتبع شهوته؟ وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل، فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك. وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه، فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال؟ والعياذ بالله منه.

فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبَّر من هذا حاله؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم، وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي! ويأخذ الآخر تبنة من الأرض

ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة! ويقول الآخر: ليتني كنت طيراً أوكل! ويقول الآخر: ليتني لم أك شيئاً مذكوراً! كلُّ ذلك خوفاً من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالاً من الطير ومن التراب. ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق.

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها، فترك بعضها، وأدخل النقصان في بعضها، وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً ذليلاً، ويلقيه على بابه في الحر والشمس زماناً طويلاً، حتى إذا ضاق الأمر عليه، وبلغ به المجهود، أمر برفع حسابه، وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك، وعفا عن بعضهم، وهو لا يدري من أيِّ الفريقين يكون؟ فإذا تفكَّر في ذلك انكسرت نفسه وذل، وبطل عزه وكبره، وظهر حزنه وخوفه، ولم يتكبر على أحد من الخلق، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيَّعه من أوامر ربه، بجنايات على جوارحه، وبذنوب في باطنه، من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره، وعلم فيما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع، وقال له: إن لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه، وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً، أو تصور ذلك. وبهذا زال التكبُّر عن الأنبياء عليهم السلام، إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم، فهذا أيضاً مما يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق، والمبتدع؟ وكيف يرى نفسه دونهم، وهو عالم عابد؟ وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى؟ وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟

فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكُّر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه، إذ يتصوَّر أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان، ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره، وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين؟ إلا أبا بكر وحده؛ والعواقب مطوية عن العباد، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة. فإذن حقيقة العبد أن لا يتكبَّر على أحد؛ إن نظر إلى جاهل قال: هذا عصى الله بجهل، وأنا عصيته بعلم، فهو أعذر مني؛ وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم، فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناً قال: هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام، ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إلي، كما لم يكن ابتداؤها إلي؟ فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه! ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه، مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقة كل إنسان على نفسه؛ فإذا حبس جماعة في جناية، ووعدوا بأن تضرب رقابهم، لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمَّهم الخطر، إذ شغل كلَّ واحدٍ همُّ نفسه عن الالتفات إلى همِّ غيره، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله، وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟

فاعلم أن هذا أمر مشتبه، يلتبس على أكثر الخلق، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق، بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه، وهو ظان أنه قد غضب لله؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم؟ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر

كونه شراً، والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله، وهو خير، فإن الغضبان أيضاً يتكبَّر على من غضب عليه، والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفَّقون.

والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق، أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك، ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك، فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته، أنه ربما يختم لك بالسوء، ويختم له بالحسنى، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟

فأقول: تغضب لمولاك وسيدك، إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجياً، وصاحبك هالكاً، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك، أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال تعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه، وترى قدرك فوق قدره، فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به، ويغضب عليه؛ فإن كان الغلام محباً مطيعاً لمولاه، فلا يجد بداً أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه، ولأنه أمره به، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبُّر عليه، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام.

فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه، ومع ذلك

فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك، إذ جرى ما يكرهه، مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة. فهكذا يكون بغض العلماء الأكياس، فينضم إليه الخوف والتواضع؛ وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره، مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور؛ فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبُّر بالورع والعبادة، وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من يتقدَّم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان، لما عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» [أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة ﷺ وتقدم في العلم] إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم.

فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه، وهذا عالم فاجر.

فيقال له: أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكلٌّ واحد منهما ممكن، وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك، وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً، بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صحَّ هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد، لقوله عليه السلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»؟ فاعلم أن ذلك كان ممكناً لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق، لذنب واحد كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم وقد مقته به، وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفاً، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفاً على نفسه، وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف، وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من التكبر بكلِّ حال.

فهذا العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبَّر على المستور، فلعله أقل منه ذنوباً، وأكثر منه عبادة، وأشد

منه حباً لله. وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك، فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنباً، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك، وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة، نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشدَّ، كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه؛ إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل، واعتقاد الباطل، والوسوسة في صفات الله تعالى، وتخيل الخطأ في ذلك، كلُّ ذلك شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتاً، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه، وقد كفَّر الله بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة، فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنت مشفقاً على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك، بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر، وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

وقد قال وهب بن منبه: ما تمَّ عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال، فعدَّ تسعة حتى بلغ العاشرة، فقال: العاشرة! وما العاشرة! بها شاد مجده، وبهما علا ذكره؛ أن يرى الناس كلَّهم خيراً منه، وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى، فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شرٌّ منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فلا تراه إلا خائفاً من العاقبة، ويقول: لعل برَّ هذا باطن، فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله، فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال، وبري ظاهر فذلك شر لي، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها، ثم قال: فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه. فهذا كلامه. وبالجملة فمن جوَّز أن يكون عند الله شقياً، وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال.

نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كلَّ أحد خيراً من نفسه، وذلك هو الفضيلة، كما روي أن عابداً أوى إلى جبل، فقيل له في النوم: ائت فلاناً الإسكاف فسله أن يدعو لك. فأتاه

فسأله عن عمله، فأخبره أنه يصوم النهار، ويكتسب فيتصدق ببعضه، ويطعم عياله ببعضه، فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله وعبادته، فأتي في النوم ثانياً فقيل له: ائت فلاناً الإسكاف، فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله فقال له: ما رأيت أحداً من الناس إلا وقع لي أنه سينجو وأهلك أنا، فقال العابد: بهذه.

والذي يدلُّ على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وَجَل عظيم من قبولها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام ـ مع تقدُّسهم عن الذنوب، ومواظبتهم على العبادات على الدؤوب ـ بالإشفاق، فقال تعالى مخبراً عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل – وينكشف عند خاتمة الأجل – غلب الأمن من مكر الله، وذلك يوجب الكبر، وهو سبب الهلاك. فالكبر دليل الأمن، والأمن مهلك. والتواضع دليل الخوف، وهو مسعد؛ فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر، واحتقار الخلق، والنظر إليهم بعين الاستصغار، أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال.

فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع، وتدعي البراءة من الكبر، وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة، بل ينبغي أن تكمل بالعمل، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات، هي أدلة على استخراج ما في الباطن، وإن كانت الامتحانات كثيرة.

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه، فثقل عليه قبوله والانقياد لهو والاعتراف به، والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق، فذلك يدلُّ على أن فيه كبراً دفيناً، فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه. أما من حيث العلم فبأن يذكِّر نفسه خسة نفسَه، وخطر عاقبته، وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى. وأما العمل فبأن يكلِّف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق، وأن يطلق اللسان

بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز، ويشكره على الاستفادة ويقول: ما أحسن ما فطنت له، وقد كنتُ غافلاً عنه، فجزاك الله خيراً كما نبهتني له؛ فالحكمة ضالة المؤمن، فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دلَّه عليها. فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً، وسقط ثقل الحق عن قلبه، وطاب له قبوله، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم، ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس، ويذكِّر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرياء. وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلَّص من الثاني، فليعالج كلا الداءين، فإنهما جميعاً مهلكان.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل، ويقدِّمهم على نفسه ويمشي خلفهم، ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلُّفاً حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يزايله الكبر، وههنا للشيطان مكيدة، وهو أن يجلس في صفِّ النعال، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال، فيظن أن ذلك تواضعاً، وهو عين الكبر، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضُّل، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدِّم أقرانه، ويجلس بينهم بجنبهم، ولا ينحط عنهم إلى صفِّ النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق، والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه، مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكلُّ ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك، وقد أهمل الناس طبَّ القلوب، واشتغلوا بطب الأجساد، مع أن

الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تُدرك السعادة إلا بسلامتها، إذ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. ويروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب، فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفيك! قال: أجل، ولكن أردت أن أجرِّب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة، حتى جرَّبها أهي صادقة أم كاذبة؟ وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد حمل قربة على عاتقه، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، ما حملك على هذا؟ فقال: إن نفسي أعجبتني، فأردتُ أن أذلَّها. وفي الخبر: «من حمل الفاكهة أو الشيء فقد برئ من الكبر» [أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة ﷺ وضعفه بلفظ: «من حمل بضاعته»].

الامتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء، وفي الخلوة كبر. وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من اعتقل البعير، ولبس الصوف، فقد برئ من الكبر» [أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ﷺ بزيادة فيه، وفي إسناده القاسم اليعمري ضعيف جداً]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا عبد، آكل بالأرض، وألبس الصوف، وأعقل البعير، وألعق أصابعي، وأجيب دعوة المملوك، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [تقدم بعضه ولم أجد بقيته]. وروي أن أبا موسى الأشعري قيل له: إن أقواماً يتخلَّفون عن الجمعة بسبب ثيابهم، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس. وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر، فما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر، فاعرف؛ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٣ / ص ٣٧٦) (٤/٦٢١)

٨ ـ الصنف الأول من أصناف المغترين: أهل العلم، والمغترون منهم فرق:

ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمَّقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقُّد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم،

وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله، وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة؛ وهو العلم بالله وبصفاته، المسمى بالعادة: علم المعرفة.

فأما العلم بالمعاملة: كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة، وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكلُّ علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. فمثال هذا: كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة، لا يعرفها إلا حذاق الأطباء، فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه، حتى عثر على طبيب حاذق، فعلَّمه الدواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تجتلب، وعلَّمه كيفية دقِّ كل واحد منها، وكيفية خلطه وعجنه، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن، ورجع إلى بيته، وهو يكررها ويعلِّمها المرضى، ولم يشتغل بشربها واستعمالها؛ أفترى أن ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً؟ هيهات هيهات! لو كتب منه ألف نسخة، وعلَّمه ألف مريض، حتى شفي جميعهم، وكرَّره كل ليلة ألف مرة، لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً، إلا أن يزن الذهب، ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم، ويشربه ويصبر على مرارته، ويكون شربه في وقته، وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه، وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه، فكيف إذا لم يشربه أصلاً؟ فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره.

وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها، وأحكم على الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور، إذ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولم يقل: قد أفلح من تعلَّم كيفية تزكيتها، وكتب علم ذلك وعلَّمه الناس! وعند هذا يقول له الشيطان: لا يغرنَّك هذا المثال، فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض، وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه، والعلم يجلب الثواب، ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم؛ فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً، وافق ذلك مراده وهواه، فاطمأن إليه وأهمل العمل، وإن كان كيِّساً فيقول للشيطان: أتذكرني فضائل العالم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه، كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وكقوله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، فأيُّ خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً» [أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وحديث علي رضي الله عنه بإسناد ضعيف، إلا أنه قال: «زهداً»، وروى ابن حبان في روضة العقلاء موقوفاً على الحسن: «من ازداد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلا بعداً»، وروى أبو الفتح الأزدي في الضعفاء من حديث علي رضي الله عنه: «من ازداد بالله علماً ثم ازداد للدنيا حباً ازداد الله عليه غضباً»]، وقال أيضاً: «يُلقى العالم في النار فتندلق أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحى» [متفق عليه بلفظ: «الرجل» بدل «العالم»]، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «شرُّ الناس العلماء السوء» [رواه الدارمي بنحوه من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلاً، وهو ضعيف، ورواه البزار في مسنده من حديث معاذ رضي الله عنه بسند ضعيف]، وقول أبي الدرداء رضي الله عنه: ويل للذي لا يعلم مرة، ولو شاء الله لعلَّمه، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات، أي أن العلم حجة عليه إذ يقال له: ماذا عملت فيما علمت؟ وكيف قضيت شكر الله؟

وقال صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» [رواه الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد ضعيف]، فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم، في باب علامة علماء الآخرة، أكثر من أن يحصى، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر، وما ورد في فضل العلم يوافقه، فيميل الشيطان قلبَه إلى ما يهواه، وذلك عين الغرور، فإنه إن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذمِّ العلماء السوء، وأن حالهم عند الله أشدُّ من حال الجُهّال؛ فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير، مع تأكد حجة الله عليه، غاية الغرور.

وأما الذي يدعي علوم المكاشفة، كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه، وهو مع ذلك يهمل العمل، ويضيع أمر الله وحدوده، فغروره أشد، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك، فعرف الملك، وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه، ولم يتعرَّف ما يحبُّه ويكرهه، وما يغضب عليه وما يرضى به، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به عليه، وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون، فورد على الملك، وهو يريد التقرب منه والاختصاص به، متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك، عاطلاً عن جميع ما يحبه، متوسّلاً إليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده

وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته؛ فهذا مغرور جداً؛ إذ لو ترك جميع ما عرفه، واشتغل بمعرفته فقط، ومعرفة ما يكرهه ويحبه، لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدلُّ على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني، إذ لو عرف الله حقَّ معرفته لخشيه واتقاه؛ فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه، وكأنه ما عرف الأسد، فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي، ويعلم أنه مسخَّر في قدرةٍ من لو أهلك مثله آلافاً مؤلفة، وأبَّد عليهم العذاب أبد الآباد، لم يؤثر ذلك فيه أثراً، ولم تأخذه عليه رقة، ولا اعتراه عليه جزع. ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقيل: معناه العلماء بالله عز وجل على الحقيقة. وفاتحة الزبور: (رأس الحكمة خشية الله)، وقال ابن مسعود ﷺ: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً. واستفتي الحسن عن مسألة، فأجاب، فقيل له: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال: وهل رأيت فقيهاً قط؟ إنما الفقيه القائم ليله، الصائم نهاره، الزاهد في الدنيا. وقال مرة: الفقيه لا يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله، فإن قبلت منه حمد الله، وإن رُدَّت عليه حمد الله. فإذن الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه، وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه، وهو العالم، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين.

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله، من الكبر والحسد والرياء، وطلب الرياسة والعلاء، وإرادة السوء للأقران والنظراء، وطلب الشهرة في البلاد والعباد، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم، فهو مكبٌّ عليها، غير متحرِّز عنها، ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «أدنى الرياء شرك» [أخرجه الطبراني هكذا، والحاكم بلفظ: «إن اليسير من الرياء شرك»]، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر» [رواه مسلم]، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» [أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال البخاري: لا

يصح. وهو عند ابن ماجه من حديث أنس ﷺ بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن]، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «حبُّ الشرف والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» [لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ «الجاه» بدل «الشرف»]، إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة. فهؤلاء زيَّنوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ]، فتعهَّدوا الأعمال، وما تعهَّدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ومثال هؤلاء كبئر الحش، ظاهرها جص وباطنها نتن؛ أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة؛ أو كبيت مظلم باطنه، وضع سراج على سطحه، فاستنار ظاهره، وباطنه مظلم؛ أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره، فجصَّص باب داره، وترك المزابل في صدر داره؛ ولا يخفى أن ذلك غرور، بل أقرب مثال إليه: رجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله، فأخذ يجزُّ رؤوسه وأطرافه، فلا تزال تقوى أصوله فتنبت، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب، فمن لا يطهر القلب منها لا تتمُّ له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة؛ بل هو كمريض ظهر به الجرب، وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره، والدواء ليقطع مادته من باطنه، فقنع بالطلاء وترك الدواء، وبقي يتناول ما يزيد في المادة، فلا يزال يطلي الظاهر، والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن.

وفرقة أخرى علموا هذه الأخلاق الباطنة، وعلموا أنها الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام، دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا: ما هذا كبر، وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، ونصرة دين الله، وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين! وإني لو لبست الدون من الثياب، وجلست في الدون من المجالس، لشمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك، وكان ذلي ذلاً على الإسلام، ونسي المغرور أن عدوَّه الذي حذَّره منه مولاه هو الشيطان، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به،

وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين؟ ونسي ما روي عن الصحابة من التواضع والتبذُّل والقناعة بالفقر والمسكنة، حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيِّه عند قدومه إلى الشام، فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نطلب العزَّ في غيره. ثم هذا المغرور يطلب عزَّ الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والإبريسم - المحرَّم - والخيول والمراكب، ويزعم أنه يطلب به عزَّ العلم وشرف الدين!

كذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه، أو فيمن ردَّ عليه شيئاً من كلامه، لم يظنَّ بنفسه أن ذلك حسد، ولكن قال: إنما هذا غضب للحق، وردٌّ على المبطل في عدوانه وظلمه، ولم يظن بنفسه الحسد، حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم، أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها، هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله؟ أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه.

وهكذا يرائي بأعماله وعلومه، وإذا خطر له خاطر الرياء قال: هيهات! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي، ليهتدوا إلى دين الله تعالى، فيتخلَّصوا من عقاب الله تعالى، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان؛ كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم، فإنه لا يفرِّق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر، وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضاً، ويقول: إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الأجر لي والثواب لي، فإنما فرحي بثواب الله، لا بقبول الخلق قولي! هذا ما يظنه بنفسه، والله مطَّلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم، أكثر من ثوابه في الإظهار، وحبس مع ذلك في سجن وقيِّد بالسلاسل، لاحتال في هدم السجن وحلِّ السلاسل، حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره.

وكذلك يدخل على السلطان ويتودَّد إليه ويثني عليه ويتواضع له، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام، قال له الشيطان: هيهات! إنما ذلك عند الطمع في مالهم، فأما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين، وتدفع الضرر عنهم، وتدفع شر أعدائك عن نفسك! والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان، فصار يشفعه

في كل مسلم، حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين، ثقل ذلك عليه، ولو قدر على أن يقبِّح حاله عند السلطان، بالطعن فيه والكذب عليه، لفعل؛ وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم، وبك قوام الدين! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيغترُّ بهذا التلبيس في ثلاثة أمور:

أحدها: في أنه مال لا مالك له، فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء، وأولادهم وورثتهم أحياء، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم، ومن غصب مئة دينار من عشرة أنفس وخلطها، فلا خلاف في أنه مال حرام، ولا يقال: هو مال لا مالك له، ويجب أن يُقسم بين العشرة، ويرد إلى كلٍّ واحد عشره، وإن كان مال كلٍّ واحد قد اختلط بالآخر.

الثاني والثالث: في قوله: إنك من مصالح المسلمين، وبك قوام الدين؛ ولعل الذين فسد دينهم، واستحلُّوا أموال السلاطين، ورغبوا في طلب الدنيا والإقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه، أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله، فهو على التحقيق دجال الدين، وقوام مذهب الشياطين، لا إمام الدين؛ إذ الإمام هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله، كالأنبياء عليهم السلام، والصحابة، وعلماء السلف؛ والدجال: هو الذي يُقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا؛ فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته، وهو يزعم أنه قوام الدين؛ ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخِّرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير.

وفرقة أخرى أحكموا العلم، وطهَّروا الجوارح، وزيَّنوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقَّدوا أخلاق النفس وصفات القلب، من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبرِّي منها، وقلعوا من القلوب منابتها الجليَّة القوية، ولكنهم بعد مغرورون؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه، فلم يفطنوا لها وأهملوها، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع

من الحشيش، فدار عليه وفتش عن كلِّ حشيش رآه فقلعه، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض، وظنَّ أن الكل قد ظهر وبرز، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف، فانبسطت تحت التراب فأهملها، وهو يظن أنه قد اقتلعها، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري؛ فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك، ويذهل عن المراقبة للخفايا، والتفقد للدفائن، فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته؛ ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقديم له في المهمات، وإيثاره في الأغراض، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد، والتمتع بتحريك الرؤوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال، للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا، لا عن تفجع بمصيبة الدين، ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص.

ولعل هذا المسكين المغرور، حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء، فلو تغيَّرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد، بما يظهر من أعماله، فعساه يتشوَّش عليه قلبه، وتختلط أوراده ووظائفه، وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع، وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره، وينبوا قلبه عمن عرف حدَّ فضله وورعه، وإن كان ذلك على وفق حاله، وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض، وهو يرى أنه يؤثره لتقدُّمه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده، وأكثر ثناء عليه، وأشد إصغاء إليه، وأحرص على خدمته، ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه، فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه، ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه؛ وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول والعزلة وإخفاء العلم، لم يرغب فيه، لفقده في

العزلة والاختفاء لذةَ القبول وعزة الرياسة، ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان: من زعم من بني آدم أنه بعلمه امتنع مني، فبجهله وقع في حبائلي؛ وعساه يصنف ويجتهد فيه ظاناً أنه يجمع علم الله لينتفع به، وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف، فلو ادعى مدَّع تصنيفه، ومحا عنه اسمه، ونسبه إلى نفسه، ثقل عليه ذلك، مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف، والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه، إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن في غيره، ليستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه، وأعظم منه علماً، ولقد كان في غنية عن الطعن فيه؛ ولعله يحكي من الكلام المزيَّف ما يزيد تزييفه فيعزيه إلى قائله، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه، ليظن أنه من كلامه، فينقله بعينه كالسارق له، أو يغيره أدنى تغيير، كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء، حتى لا يعرف أنه مسروق، ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه، كيلا ينسب إلى الركاكة، ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس؛ وعساه غافلاً عما روي أن بعض الحكماء وضع ثلاث مئة مصحف في الحكمة، فأوحى الله إلى نبي زمانه، قل له: قد ملأت الأرض نفاقاً، وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً.

ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ظنَّ كلُّ واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه، فلو افترقوا واتبع كلُّ واحد منهم فرقة من أصحابه، نظر كلُّ واحد إلى كثرة من يتبعه، وأنه أكثر تبعاً أو غيره، فيفرح إن كان أتباعه أكثر، وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه، ثم إذا تفرَّقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا، ولعل من يختلف إلى واحد منهم، إذا انقطع عنه إلى غيره، ثقل على قلبه، ووجد في نفسه نفرة منه، فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه، ولا يتشمَّر لقضاء حوائجه كما كان يتشمَّر من قبل، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى، مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه، لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة، وسلامته عنها في تلك الفئة، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه، ولعل واحداً منهم إذا تحرَّكت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره، فيتعلَّل بالطعن فيه وفي دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك، ويقول: إنما غضبت لدين الله لا لنفسي؛ ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له،

وإن أثني عليه ربما ساءه وكرهه، وربما قطَّب وجهه إذا ذُكرت عيوبه، يُظهر أنه كاره لغيبة المسلمين، وسرُّ قلبه راض به ومريد له، والله مطَّلع عليه في ذلك.

فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس، ولا يتنزَّه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أنَّ أقلَّ الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه، فإذا أراد الله بعبد خيراً بصَّره بعيوب نفسه، ومن سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مرجوُّ الحال، وأمره أقرب من المغرور المزكي لنفسه، الممتن على الله بعمله وعلمه، الظانِّ أنه من خيار خلقه، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار، ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال؛ وهذا غرور الذين حصَّلوا العلوم المهمَّة، ولكن قصروا في العمل بالعلم.

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم، وتركوا المهم، وهم به مغترون؛ إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه.

فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد، وخصَّصوا اسم الفقه بها، وسموه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضيَّعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة، فلم يتفقدوا الجوارح، ولم يخرسوا اللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين، وكذا سائر الجوارح، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات؛ فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخر من حيث العلم.

أما العمل: فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء، واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام، وهو مشرف على الهلاك، ومحتاج إلى تعلُّم الدواء واستعماله، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض، ولكن يقول: ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك، وذلك غاية الغرور. فكذلك المتفقِّه المسكين قد يسلَّط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما يخطفه الموت قبل التوبة والتلافي، فيلقى الله وهو عليه غضبان، فترك ذلك كلَّه واشتغل بعلم السَّلَم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوي والبينات

وبكتاب الحيض، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة، فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال، وقد دهاه الشيطان وما يشعر، إذ يظنُّ المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية. هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال، وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى، فإنه وإن قصد وجه الله، فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه، فهذا غروره من حيث العمل.

وأما غروره من حيث العلم: فحيث اقتصر على علم الفتاوى، وظنَّ أنه علم الدين، وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربما طعن في المحدثين وقال: إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع، ويحمل على التقوى، فتراه آمناً من الله، مغتراً به، متكلاً على أنه لا بد وأن يرحمه فإنه قوام دينه، وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطَّل الحلال والحرام، فقد ترك العلوم التي هي أهم، وهو غافل مغرور، وسبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى، إذ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات، والمال في طريق الله آلة والبدن مركب؛ وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله. فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف، ولا شك في أنه لو لم يكن لتعطل الحج، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج في شيء ولا بسبيله، وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم.

ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات، ولم يهمه إلا تعلُّم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة، فهو طول الليل

والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب، والتفقُّد لعيوب الأقران، والتلقُّف لأنواع التسبيبات المؤذية، وهؤلاء هم سباع الإنس، طبعهم الإيذاء، وهمُّهم السفه، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة ـ كعلم القلب، وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى، بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة ـ فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل.

وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى، لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذاهب، وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفهم معانيهما. وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية، فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام، وإقامة سوق الجدل بها، فغرور هؤلاء أشد كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم.

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام، والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة، واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بالإيمان، ولا يصحُّ إيمان إلا بأن يتعلَّم جدلهم، وما سموه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلَّم علمهم، ودعت كلُّ فرقة منهم إلى نفسها.

ثم هم فرقتان: ضالة ومحقة؛ فالضالَّة هي التي تدعو إلى غير السنة، والمحقَّة هي التي تدعو إلى السنة، والغرور شامل لجميعهم. أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها، وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضاً، وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها، ولم تحكم أولاً شروط الأدلة ومناهجها، فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهة. وأما الفرقة المحقة: فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور، وأفضل القرابات في دين الله، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن، أو ليس بكامل الإيمان، ولا مقرب عند الله.

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلُّم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل، ولكنه لالتذاذه بالغلبة والإفحام، ولذة الرئاسة وعز الانتماء إلى الذب عن دين الله تعالى، عميت بصيرته، فلم يلتفت إلى القرن الأول، فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهوى، فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات، وما اشتغلوا بذلك عن تفقُّد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم، بل لم يتكلَّموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة، وتوسَّموا مخايل قبول، فذكروا بقدر الحاجة ما يدلُّ الضالَّ على ضلالته، وإذا رأوا مصرّاً على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه، وأبغضوه في الله، ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر، بل قالوا: إن الحقَّ هو الدعوة إلى السنة، ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة. إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما ضلَّ قوم قطُّ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» [رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الترمذي: حسن صحيح]، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون، فغضب عليهم حتى كأنه فقئ في وجهه حبُّ الرمان - حمرة من الغضب - فقال: «ألهذا بعثتم؟ أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا إلى ما أُمرتم به فاعملوا، وما نهيتم عنه فانتهوا» [رواه الإمام أحمد وابن ماجه]؛ فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال. ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بعث إلى كافة أهل الملل، فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم، ولم يزد في المجادلة عليه؛ لأن ذلك يشوش القلوب، ويستخرج منها الإشكالات والشبه، ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم، وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة، وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغترُّوا بهذا، وقالوا: لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل، وما ضيَّعوا العمر بتحرير مجادلاتهم، فما لنا

نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا؟ ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله، بل يزيده التعصب والخصومة تشدُّداً في بدعته، فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة، فكيف وقد نهيت عنه؟ وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة؟ فالأولى أن أتفقد نفسي، وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه، لأتنزَّه عما يبغضه، وأتمسَّك بما يحبه.

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبة من يتكلَّم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلَّموا بهذه الصفات، ودعوا الخلق إليها، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات، وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفكُّ عنه عوام المسلمين، وغرور هؤلاء أشد الغرور، لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون، ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد، وعلم السلوك إلى الله، وكيفية قطع المنازل في طريق الله! فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى، ويرى أنه من الراجين وهو المغترِّين المضيِّعين، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين، ويرى أنه من المتوكِّلين على الله وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والأسباب، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين، بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف، ويصف الرياء ويذكره وهو يرائي بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها، فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار، ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد، ويحثُّ على الإخلاص وهو غير مخلص، ويذمُّ الصفات المذمومة وهو بها متصف، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصاً، لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق، ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه

وصلحوا على يديه لمات غماً وحسداً، ولو أثنى أحد من المتردِّدين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه. فهؤلاء أعظم الناس غرة، وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد، لأن المرغِّب في الأخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه، وشغله حبُّ دعوة الخلق عن العمل به؛ فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما المخوف ما يتلوه على عباد الله، فيخافون وهو ليس بخائف، نعم إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدلَّ على طريق الامتحان والتجربة، وهو أن يدعي مثلاً حبَّ الله، فما الذي تركه من محابِّ نفسه لأجله؟ ويدعي الخوف فما الذي امتنع منه بالخوف؟ ويدعي الزهد فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟ ويدعي الأنس بالله فمتى طابت له الخلوة؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق؟ لا بل يرى قلبه يمتلئ بالحلاوة إذا أحدق به المريدون، وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى، فهل رأيت محباً آنساً يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره؟

فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات، ويطالبونها بالحقيقة، ولا يقنعون منها بالتزويق، بل بموثق من الله غليظ؛ والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون، وإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون، بل يطرحون في النار فتندلق أقتابهم، فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى، كما ورد به الخبر؛ لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه، وينهون عن الشر ويأتونه؛ وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني، وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله، ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني، فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك، وما رزقهم الله علمه، وما نفع الناس بكلامهم فيها، إلا لاتصافهم بها، وذهب عليهم أن القبول للكلام، والكلام للمعرفة، وجريان اللسان والمعرفة للعلم، وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة، فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف، بل في القدرة على الوصف، بل ربما زاد أمنه وقلَّ خوفه، وظهر إلى الخلق ميله، وضعف في قلبه حب الله تعالى؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته، ويصف الصحة والشفاء، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به، وإنما يفارقهم في الوصف

والعلم بالطب، فظنُّه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غايةُ الجهل، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غيرُ الاتصاف بحقائقها.

ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور، فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والأخبار، ووعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم.

وفرقة أخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ، وهم وعَّاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله، على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه، فاشتغلوا بالطامات والشطح، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، طلباً للإغراب. وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، فأكثر هممهم بالأسجاع والاستشهاد بأشعار العرب في الوصال والفراق، وغرضهم أن تكثر في مجالستهم الزعقات والتواجد، ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس ضلُّوا وأضلُّوا عن سواء السبيل، فإن الأولين، وإن لم يصلحوا أنفسهم، فقد أصلحوا غيرهم، وصحَّحوا كلامهم ووعظهم؛ وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله، ويجرُّون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء، فيزيدهم كلامهم جراءةً على المعاصي ورغبة في الدنيا، لا سيما إذا كان الواعظ متزيِّناً بالثياب والخيل والمراكب، فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا، فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه، بل لا يصلح أصلاً، ويضلُّ خلقاً كثيراً، ولا يخفى وجه كونه مغروراً.

وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذمِّ الدنيا، فهم يحفظون الكلمات على وجهها، ويؤدُّونها من غير إحاطة بمعانيها، فبعضهم يفعل ذلك على المنابر، وبعضهم في المحاريب، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، وكلٌّ منهم يظن أنه إذا تميَّز بهذا القدر عن السوقة والجندية، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم، فقد أفلح ونال الغرض، وصار مغفوراً له، وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه، وغرور هؤلاء أظهر من غرور مَنْ قبلهم.

وفرقة أخرى استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه، وطلب الأسانيد الغريبة العالية؛ فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان، ولقد رأيت فلاناً، ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري.

وغرورهم من وجوه:

منها: أنهم كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة، فعلمهم قاصر، وليس معهم إلا النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم.

ومنها: أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولا يعملون بها، وقد يفهمون بعضها أيضاً، ولا يعملون به.

ومنها: أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين، وهو معرفة علاج القلب، ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالي منها، ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك.

ومنها: وهو الذي أكبَّ عليه أهل الزمان، أنهم أيضاً لا يقومون بشرط السماع، فإن السماع بمجرَّده، وإن لم تكن له فائدة، ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث، إذ التفهُّم بعد الإثبات، والعمل بعد التفهم، فالأول السماع، ثم التفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر.

وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع، ثم تركوا حقيقة السماع، فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ، والحديث يُقرأ، والشيخ ينام، والصبي يلعب، ثم يُكتب اسم الصبي في السماع، فإذا كبر تصدى ليُسمع منه؛ والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع، ولا يصغي ولا يضبط، وربما يشتغل بحديث أو نسخ، والشيخ الذي يُقرأ عليه لو صُحِّف وغُيِّر ما يُقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه، وكل ذلك جهل وغرور؛ إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه، ويرويه كما حفظه، فتكون الرواية عن الحفظ، والحفظ عن السماع؛ فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين، وصار سماعك عن الراوي كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروي كما حفظت، وتحفظ كما سمعت، بحيث لا تغيِّر منه حرفاً، ولو غير غيرك منه حرفاً أو أخطأ علمت خطأه.

ولحفظك طريقان:

أحدهما: أن تحفظ بالقلب، وتستديمه بالذكر والتكرار، كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الأحوال.

والثاني: أن تكتب كما تسمع، وتصحِّح المكتوب، وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من

يغيِّره، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره، فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره، فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك، فيكون كتابك مذكراً لما سمعته، وتأمن فيه من التغيير والتحريف.

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب، وجرى على سمعك صوت غفل، وفارقت المجلس، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ، وجوَّزت أن يكون ما فيه مغيراً أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها، لم يجز لك أن تقول: سمعت هذا الكتاب، فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه، بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة. فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك، ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها، فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان: إنا سمعنا ما في هذا الكتاب، إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه، فهو كذب صريح.

وأقلُّ شروط السماع: أن يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ، يشعر معه بالتغيير، ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذي ينسخ، لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في المهد، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن، فإن كان لا يكتب سماع الصبي في المهد، لأنه لا يفهم ولا يحفظ، فالصبي الذي يلعب، والغافل، والمشغول بالنسخ عن السماع، ليس يفهم ولا يحفظ، وإن استجرأ جاهل فقال: يُكتب سماع الصبي في المهد، فليكتب سماع الجنين في البطن، فإن فرَّق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت، وهذا يسمع الصوت، فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت؟ فليقتصر إذا صار شيخاً على أن يقول: سمعت بعد بلوغي، أني في صباي، حضرت مجلساً يروى فيه حديث، كان يقرع سمعي صوته ولا أدري ما هو؟ فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح، وما زاد عليه فهو كذب صريح، ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية، لأنه سمع صوتاً غفلاً، لجاز إثبات سماع صبي في المهد، وذلك غاية الجهل. ومن أين يأخذ هذا؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعها» [أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن

صحيح، وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس رضي الله عنهما] ؟ وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري ما سمع؟ فهذا أفحش أنواع الغرور.

وقد بُلي بهذا أهل الزمان، ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخاً إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة، إلا أن للمحدثين في ذلك جاهاً وقبولاً، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك، فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم، وتقل أيضاً أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط، بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا، فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة، وإن كان لا يدري ما يجري؛ وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين، لأنه ليس من علمهم، بل من علم علماء الأصول بالفقه، وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه، فهذا غرور هؤلاء، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضاً مغرورين في اقتصارهم على النقل، وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد، وإعراضهم عن مهمات الدين، ومعرفة معاني الأخبار، بل الذي يُقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة، وسالك طريقها ربما يكفيه الحديث الواحد عمره، كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع، فكان أول حديث روي قوله عليه الصلاة والسلام: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين رضي الله عنه مرسلاً]، فقام وقال: يكفيني هذا حتى أفرغ منه، ثم أسمع غيره. فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور.

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة، واغتروا به، وزعموا أنهم قد غفر لهم، وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو، وفي صناعة الشعر، وفي غريب اللغة، ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلُّم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها، ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة، فلا بد من تعلمها وتصحيحها، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلَّم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان، والباقي زيادة على الكفاية، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك، والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع له في معرفة لغة الترك والهند، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفي من اللغة علم الغريبين في الأحاديث والكتاب، ومن النحو ما يتعلق

بالحديث والكتاب، فأما التعمُّق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه.

ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها، فهذا أيضاً مغرور، بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، واقتصر عليه، وهو غرور، إذ المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول ما به من الصفراء، وضيَّع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين، فهو من الجُهَّال المغرورين، فذلك غرور أهل النحو والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف، مهما تعمَّقوا فيها وتجرَّدوا لها وعرجوا عليها - أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين -؛ فاللب الأقصى هو العمل، والذي فوقه هو معرفة العمل، وهو كالقشر للعمل وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه، وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية، وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة، ولب بالإضافة إلى ما فوقه، وما فوقه هو العلم باللغة والنحو، وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف، والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون، إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل، فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل، فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه، ورجَّى عمره في حمل النفس عليه، وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات. فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع، وسائر العلوم خدم له، ووسائل إليه، وقشور له، ومنازل بالإضافة إليه، وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب، سواء كان في المنزل القريب، أو في المنزل البعيد. وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغترَّ بها أربابها.

فأما علم الطب والحساب والصناعات، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها، من حيث إنها علوم، فكان الغرور بها أقلَّ من الغرور بعلوم الشرع؛ لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة، كما يشارك القشر اللب في كونه محموداً، ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى؛ والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى، فمن اتخذ القشر مقصوداً وعرج عليه فقد اغتر به.

وفرقة أخرى عظم غرورهم في فن الفقه، فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق، وأساءوا تأويل الألفاظ المبهمة،

واغتروا بالظواهر وأخطؤوا فيها، وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه، والخطأ في الفتاوى مما يكثر؛ ولكن هذا نوع عمَّ الكافة إلا الأكياس منهم، فنشير إلى أمثلة:

فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برئ الزوج بينه وبين الله تعالى، وذلك خطأ؛ بل الزوج قد يسيء إلى الزوجة، بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق، فتضطر إلى طلب الخلاص، فتبرئ الزوج لتتخلَّص منه، فهو إبراء لا على طيبة نفس، وقد قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]، وطيبة النفس غير طيبة القلب، فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه، فإنه يريد الحجامة بقلبه، ولكن تكرهها نفسه، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله، حتى إذا رُدِّدت بين ضررين اختارت أهونهما، فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن. نعم القاضي في الدنيا لا يطَّلع على القلوب والأغراض، فينظر إلى الإبراء الظاهر، وأنها لم تكره بسبب ظاهر، والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه، ولكن مهما تصدى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء، لم يكن هذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيل الإبراء، ولذلك لا يحلُّ أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه، فلو طلب من الإنسان مالاً على ملأ من الناس، فاستحيا من الناس أن لا يعطيه، وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة، حتى لا يعطيه، ولكن خاف ألم مذمَّة الناس، وخاف ألم تسليم المال، وردَّد نفسه بينهما، فاختار أهون الألمين، وهو ألم التسليم، فسلَّمه، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة، إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط، حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال، فيختار أهون الألمين، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط، ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى، فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر، وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله: "وهبت"، لأنه لا يمكنه الوقوف على ما القلب، وكذلك من يعطى اتقاء لشرِّ لسانه، أو لشرِّ سعايته، فهو حرام عليه، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام. ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال - بعد أن غفر له -: يا رب كيف لي بخصمي؟ فأمر بالاستحلال منه، وكان ميتاً، فأمر بندائه في صخرة بيت المقدس، فنادى: يا أوريا، فأجابه: لبيك يا نبي الله، أخرجتني من الجنة، فما تريد؟ فقال: إني أسأت إليك في أمر فهبه لي، قال: قد فعلت ذلك يا نبي الله، فانصرف وقد ركن إلى ذلك، فقال له جبريل عليه السلام: هل ذكرت له ما فعلت؟ قال:

لا ، قال: فارجع فبيِّن له ، فرجع فناداه فقال: لبَّيك يا نبيَّ الله ، فقال: إني أذنبت إليك ذنباً ، قال: ألم أهبه لك؟ قال: ألا تسألني ما ذلك الذنب؟ قال: ما هو يا نبي الله؟ قال: كذا وكذا ، وذكر شأن المرأة ، فانقطع الجواب ، فقال: يا أوريا ألا تجيبني؟ قال: يا نبي الله ما هكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله ، فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس ، حتى وعده الله أن يستوهبه منه في الآخرة.

فهذا ينبِّهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد ، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة ، فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خُلِّي الإنسان واختياره ، حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه ، لا أن تضطر بواعثه إلى الحركة بالحيل والإلزام.

ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته ، واتهابه مالها لإسقاط الزكاة ، فالفقيه يقول: سقطت الزكاة ، فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه ، فقد صدق ، فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك ، وقد زال ، وإن ظنَّ أنه يسلم في القيامة ، ويكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد ، فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ، فإن سرَّ الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل ، فإن البخل مهلك ، قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث مهلكات: شح مطاع ، وهوى متَّبع ، وإعجاب المرء بنفسه» [أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس رضي الله عنه بإسناد ضعيف] ، وإنما صار شحه مطاعاً بما فعله ، وقبله لم يكن مطاعاً ؛ فقد تمَّ هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه ، فإن الله مطلع على قلبه ، وحبِّه المال وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسدَّ على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور.

ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة ، والفقهاء المغرورون لا يميِّزون بين الأماني والفضول والشهوات ، وبين الحاجات ، بل كلُّ ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة ، وهو محض الغرور ، بل الدنيا خُلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة ، فكلُّ ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته ، وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته. ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات ، والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرُّف الأجناس دون الاستيعاب ، فإن ذلك يطول.

** ** **

من الجزء الرابع

إحياء علوم الدين - (ج ٤ / ص ١٧٠) (٣٣٧/٥)

١ـ بيان معنى سوء الخاتمة، وفيه كيفية الروح بعد الموت، وأن التراب لا يأكل محل الإيمان.

فإن قلت: إن أكثر هؤلاء يرجع إلى سوء الخاتمة، فما معنى سوء الخاتمة؟ فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين، إحداهما أعظم من الأخرى:

فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فأن يغلب على القلب، عند سكرات الموت وظهور أهواله، إما الشك وإما الجحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية ـ وهي دونها ـ: أن يغلب على قلبه عند الموت حبُّ أمر من أمور الدنيا، وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه، ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متَّسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحال، فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها؛ ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب؛ ومهما حصل الحجاب نزل العذاب؛ إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه. فأما المؤمن السليم قلبه عن حبِّ الدنيا، المصروف همه إلى الله تعالى، فتقول له النار: جز يا مؤمن، فإن نورك أطفأ لهبي. فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه، إذ لا تصرُّف في القلوب إلا بأعمال الجوارح، وقد بطلت الجوارح بالموت، فبطلت الأعمال؛ فلا مطمع في عمل، ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدراك، وعند ذلك تعظم الحسرة، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة، وتأكَّد ذلك بالأعمال الصالحة، فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت، فإن كان إيمانه في القوة إلى حدِّ مثقال، أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقلَّ من ذلك طال مكثه في النار، ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين.

فإن قلت: فما ذكرته يقتضي أن تسرع النار إليه عقيب موته، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة، ويمهل طول هذه المدة؟

فاعلم أنَّ كلَّ من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى، وعن نور القرآن ونور الإيمان، بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحت به الأخبار وهو: أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة [أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد ﷺ وقال: غريب] وأنه قد يفتح إلى قبر المعذَّب سبعون باباً من الجحيم [لم أجد له أصلاً]، كما وردت به الأخبار، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة. وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر، والتعذيب بعده، ثم المناقشة في الحساب والافتضاح على ملأ من الأشهاد في القيامة [رواه أحمد والطبراني من حديث ابن عمر ﷺ بإسناد جيد، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر ﷺ: «وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم»، وللطبراني في الأوسط، والعقيلي في الضعفاء من حديث فضل بن عباس ﷺ: «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة» وهو حديث طويل منكر]، ثم بعد ذلك خطر الصراط، وهول الزبانية [أخرجه الطبراني من حديث أنس ﷺ: «الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران. قال صاحب الميزان: حديث منكر. وروى ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلاً في خزنة جهنم: «ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب»]... إلى آخر ما وردت به الأخبار، فلا يزال الشقيُّ متردِّداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب، وهو في جملة الأحوال معذب، إلا أن يتغمده الله برحمته، **ولا تظنَّن أن محل الإيمان يأكله التراب، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فتجتمع الأجزاء المتفرِّقة، وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما في حواصل طيور خضر معلَّقة تحت العرش إن كانت سعيدة، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية.**

فإن قلت: فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها.

أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين:

أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال: كالمبتدع الزاهد فإن عاقبته مخطرة جداً، وإن كانت أعماله صالحة، ولست أعني مذهباً فأقول إنه بدعة؛ فإن بيان ذلك يطول القول فيه، بل أعني بالبدعة: أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق، فيعتقده على خلاف ما هو عليه، إما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر، وإما أخذاً بالتقليد ممن هذا حاله؛ فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت، واضطرب القلب بما فيه، ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً، إذ حال الموت حال كشف الغطاء، ومبادئ سكراته منه، فقد ينكشف به بعض الأمور؛ فمهما بطل عنده ما كان اعتقده، وقد كان قاطعاً به متيقناً له عند نفسه، لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة، لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص، بل ظن أن كلَّ ما اعتقده لا أصل له، إذ لم يكن عنده فرق في إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة، وبين اعتقاده الفاسد، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان، فقد ختم له بالسوء، وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، وبقوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل، وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب، فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت، فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتنكشف له الأمور على ما هي عليه، فيكون مثل هذه الحال سبباً للكشف، ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات، وكلُّ من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به، إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول، فهو في هذا الخطر، والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق، والبله بمعزل عن هذا الخطر، أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً مجملاً راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر، ولم

يشرعوا في الكلام استقلالاً، ولا أصغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «أكثر أهل الجنة البله» [أخرجه البزار من حديث أنس رضي الله عنه وضعَّفه، وصحَّحه القرطبي في التذكرة، وليس كذلك، فقد قال ابن عدي: إنه منكر]؛ ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور، وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعاً، وبكلِّ ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه، ومنعوهم عن الخوض في التأويل، لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم، وعقباته كؤودة، ومسالكه وعرة، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض، والقلوب لما ألقي إليها في مبدأ النشأة آلفة، وبه متعلقة، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة، أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر، ثم الطباع بحبِّ الدنيا مشغوفة، وعليها مقبلة، وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة، وعن تمام الفكر صارفة، فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول ـ مع تفاوت الناس في قرائحهم، واختلافهم في طبائعهم، وحرص كل جاهل منهم على أن يدعي الكمال أو الإحاطة بكنه الحق ـ انطلقت ألسنتهم بما يقع لكلِّ واحد منهم، وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم، وتأكد ذلك بطول الألف فيهم، فانسدَّ بالكلية طريق الخلاص عليهم؛ فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة، ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حدِّ طاقتهم، ولكن الآن قد استرخى العنان، وفشا الهذيان، ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظنٍّ وحسبان، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان، وأنه صفو الإيمان، ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٨]، وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقيناً أن كلَّ من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه، وخاض في البحث، فقد تعرَّض لهذا الخطر، ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج، يرميه موج إلى موج، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل، وذلك بعيد، والهلاك عليه أغلب، وكل نازل

على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم، إما مع الأدلة التي حرروها في تعصباتهم، أو دون الأدلة؛ فإن كان شاكاً فيه فهو فاسد الدين، وإن كان واثقاً فهو آمن من مكر الله، مغترٌّ بعقله الناقص، وكلٌّ خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة، الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة، وذلك هو الكبريت الأحمر، وأنى يتيسر، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام، أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله، فلم يخوضوا في هذا الفضول، فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة.

وأما السبب الثاني: فهو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حبِّ الدنيا على القلب، ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى، وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى، إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات، حتى يظلم القلب ويقسو ويسود، وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الإيمان ـ على ضعفه ـ حتى يصير طبعاً وريناً، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب ـ أعني حب الله ـ ضعفاً، لما يبدو من استشعار فراق الدنيا، وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا، ويرى ذلك من الله، فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت، وكراهة ذلك من حيث إنه من الله، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب، كما أن الذي يحبُّ ولده حباً ضعيفاً، إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحبُّ إليه من ولده وأحرقها، انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة، فقد خُتم له بالسوء، وهلك هلاكاً مؤبداً.

والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حبِّ الدنيا، والركون إليها، والفرح بأسبابها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى، فمن وجد في قلبه حبَّ الله أغلب من حبِّ الدنيا ـ وإن كان يحبُّ الدنيا أيضاً ـ فهو أبعد عن هذا الخطر، وحبُّ الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال، وقد عم أصناف الخلق، وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى، إذ لا يحبه إلا من عرفه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]

فإذن كل من فارقته روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله، وظهور بغض فعل الله بقلبه، في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه، فيكون موته قدوماً على ما أبغضه، وفراقاً لما أحبه، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال. وأما الذي يتوفى على الحب، فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعاً في لقائه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلاً عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام.

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى، وليست مقتضية للخلود في النار، فلها أيضاً سببان:

أحدهما: كثرة المعاصي، وإن قوي الإيمان، والآخر: ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي، وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات، ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عن الموت، فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه، ويصير محجوباً عن الله تعالى، فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة، فهو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جداً عن هذا الخطر، والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات، فهذا الخطر عظيم في حقه جداً.

....

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة، وما هو مخوف فيها، فاشتغل بالاستعداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى، وأخرج من قلبك حبَّ الدنيا، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك، وعن الفكر فيها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك، ويصرف إليه فكرك وخواطرك، وإياك أن تسوِّف وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كلَّ نفس من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك في كل تطريفة، وإياك أن تهمله لحظة، فلعل تلك اللحظة

خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك، هذا ما دمت في يقظتك، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول على لسانك، فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر.

واعلم قطعاً أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته، ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، ولا يحشر إلا على ما مات عليه، وتحقَّق قطعاً ويقيناً أن الموت والبعث حالتان من أحوالك، كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك، وآمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب، إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة، وراقب أنفاسك ولحظاتك، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين، فإنك إذا فعلت ذلك كلَّه كنت مع ذلك في خطر عظيم، فكيف إذا لم تفعل؛ والناس كلهم هلكى إلا العالمين، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملين، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم.

واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن، والباقي كله فضول، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسدُّ رمقك، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك، إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه، فهما ضرورتان في الجبلة، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك، فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك، واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوي على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك، فعلامة ذلك تظهر من ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره وجنسه، أما الوقت فأقلُّه أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم، وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن، وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة، بل يقنع بما يتفق، فإن قدرت على هذه الثلاث، وسقطت عنك مؤونة الشهوات واللذائذ، قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات، وأمكنك أن لا تأكل إلا من حِلِّه، فإن الحلال يعزُّ ولا يفي بجميع الشهوات.

وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة ؛ فكلُّ ما دفع البرد عن رأسك، ولو قلنسوة بدانق، فطلبك غيره فضول منك، يضيع فيه زمانك، ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة، وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك، فكلُّ ما حصل مقصود اللباس، إن لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه، لم يكن لك موقف ومرد بعده، بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب ؛ وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفاً والأرض مستقراً، فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد، فإن طلبت مسكناً خاصاً طال عليك، وانصرف إليه أكثر عمرك، وعمرك هو بضاعتك، ثم إن تيسَّر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلاً بينك وبين الأبصار، ومن السقف سوى كونه دافعاً للأمطار، فأخذت ترفع الحيطان وتزيِّن السقوف، فقد تورطت في مهواة يبعد رقيك منها، وهكذا جميع ضرورات أمورك، إن اقتصرت عليها تفرَّغت لله، وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك، وإن جاوزت حدَّ الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك، ولم يبال الله في أي واد أهلكك ؛ فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك ؛ واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير، فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك، ولم تفارقك حسرتك وندامتك، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك، إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك، فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم، لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء، حتى كان بعضهم يصعق، وبعضهم يدهش، وبعضهم يسقط مغشياً عليه، وبعضهم يخر ميتاً إلى الأرض، ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك، فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

** ** **

إحياء علوم الدين – (ج ٤ / ص ٢٤٥) (٥/٤٨٨)

٣ـ عالم الجبروت:

واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة: عالم الملك والشهادة أولها، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة؛ والثاني: عالم الملكوت وهو ورائي، فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله، وفيه المهامة والفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة، ولا أدري كيف تسلم فيها؛ والثالث: هو عالم الجبروت، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاث منازل، في أوائلها منزلة القدرة والإرادة والعلم، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت، لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً، وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء، فلا هي في حد اضطراب الماء، ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها، وكل من يمشي على الأرض في عالم الملك والشهادة؛ فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت؛ فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع، فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة، ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي.

** ** **

إحياء علوم الدين – (ج ٤ / ص ٤١٦-٤٢٠) (٦/٢٦٩-٢٧٧)

٤ـ فائدة عظيمة: النوع الرابع ـ من مجاري الفكر ـ وهو المنجيات:

وأما النوع الرابع ـ من مجاري الفكر ـ وهو المنجيات، فهو التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه، والرضا بأفعاله، والشوق إليه، والخشوع والتواضع له، وكلُّ ذلك ذكرناه في هذا الربع، وذكرنا أسبابه وعلاماته، فليتفكَّر العبد كلَّ يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار.

فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولاً، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرِّض لمقت الله تعالى، حتى ينبعث له حال الندم.

وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه، وفي إرساله جميل ستره عليه، على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر، فليطالع ذلك.

وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه، كما سنشير إلى طرف يسير منه في القسم الثاني من الفكر.

وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير، وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه، ثم في هول النداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب في النقير والقطمير، ثم في الصراط ودقته وحدته، ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها، وأنواع العذاب فيها، وقبح صور الزبانية الموكَّلين بها، وأنهم كلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها، وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، وهلم جراً إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها.

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها، ونعيمها المقيم، وملكها الدائم، فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة، أو التنزه عن صفات مذمومة، وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يُستعان به على تفصيل الفكر؛ أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكُّر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاء للعالمين، وفيه ما يورث الخوف والرجاء، والصبر والشكر، والمحبة والشوق، وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد، ويردِّد الآية

التي هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى، ولو مئة مرة، فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم، فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة، فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر، ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب، بعد صدق المعاملة، وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه قد أوتي جوامع الكلم، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة، ولو تأمَّلها العالم حقَّ التأمُّل لم ينقطع فيها نظرُه طول عمره، وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول، فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن روح القدس نفث في روعي؛ أحبب من أحببت فإنك مفارقه؛ وعش ما شئت فإنك ميت؛ واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به» [أخرجه الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه نحوه، والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي رضي الله عنه وكلاهما ضعيف]؛ فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين، وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر، إذ لو وقفوا على معانيها، وغلبت على قلوبهم غلبة يقين، لاستغرقتهم، ولحال ذلك بينهم وبين التلفُّت إلى الدنيا بالكلية.

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة، وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة، والمبتدئ ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار، حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة، وينزِّه باطنه وظاهره عن المكاره، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات، فليس هو له غاية المطلب، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين، وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله، واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه، أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته، فيكون مستغرق الهم بالمحبوب، كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب، فإنه لا يتفرَّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه، وهو منتهى لذة العشاق؛ فأما ما ذكرناه فهو تفكُّر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب؟ ولذلك كان الخوَّاص يدور في البوادي، فلقيه الحسين بن منصور، وقال: فيم أنت؟ قال: أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل، فقال الحسين: أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين، ومنتهى نعيم الصديقين؛ وأما التنزُّه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى

الخروج عن العدة في النكاح، وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها ووجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها، فإن استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء المحبوب، فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفاً من الضرب وطمعاً في الأجرة فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة، فإن بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً، فإذا قضيت حقَّ الأعمال كنت من أهل الجنة، ولكن للمجالسة أقوام آخرون.

وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه، فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحاً ومساء، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى، وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى، بل كلُّ مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض نفسه عليها كل يوم، ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحبُّ المال، وحبُّ الجاه.

ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخُلُق مع الخَلْق، وحب الله تعالى، والخشوع له، فهذه عشرون خصلة، عشر مذمومة، وعشر محمودة، فمهما كُفي من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته، ويدع الفكر فيها، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها، وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه، فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع؛ وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلاً خط عليها، واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمِّر.

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهة، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس،

والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء، والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعدُّ نفسه من وجوه الصالحين لا ينفكُّ عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره، بل كلُّ فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تفقُّدهم لها وتفكُّرهم فيها، لا في معاصٍ هم بمعزل عنها.

مثاله العالم الورع؛ فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة وانتشار الصيت، إما بالتدريس أو بالوعظ، ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزُّين والتصنُّع، وذلك من المهلكات؛ وإن رُدَّ كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده، وهو أكثر من غيظه على من يردُّ كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول: إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور، وضحكة للشيطان. ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء، واستنكاف من الرد أو الإعراض، لم يخل عن تكلُّف وتصنُّع لتحسين اللفظ والإيراد حرصاً على استجلاب الثناء، والله لا يحب المتكلِّفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلُّف فيها لينتشر الحق، ويحسن موقعه في القلب، إعلاء لدين الله؛ فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه، فهو مخدوع، وإنما يدور حول طلب الجاه، وهو يظن أن مطلبه الدين، ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً، ويكون بلقائه أشد فرحاً واستبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره، وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاة، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه، وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سرِّ القلب، التي قد يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات، ففتنة العالم عظيمة، وهو إما مالك وإما هالك، ولا مطمع له في سلامة العوام.

فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول

والمدافعة للفتاوى مهما سئل، فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جمعاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلُّهم مفتون، وكانوا يتدافعون الفتوى، وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره؛ وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذا قالوا: لا تفعل هذا، فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق، وليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فإنه قد كان معموراً قبلي، وكذلك يكون بعدي، ولو متُّ لا تنهدم أركان الإسلام، فإن الدين مستغن عني، وأما أنا فلست مستغنياً عن إصلاح قلبي، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل، فإن الناس لو حُبسوا في السجن، وقُيدوا بالقيود، وتوعدوا بالنار على طلب العلم، لكان حب الرئاسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون، والخروج منها، والاشتغال بطلب العلم، فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبِّب إلى الخلق الرئاسة، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة، بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم» [أخرجه النسائي من حديث أنس رضي الله عنه بإسناد صحيح]، و«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» [متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]، فلا ينبغي أن يغترَّ العالم بهذه التلبيسات، فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم، فإن ذلك بذر النفاق، قال صلى الله عليه وسلم: «حب الجاه والمال ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» [أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بسند ضعيف، إلا أنه قال: «حب الغناء» وقال: «العشب» مكان «البقل»]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم، بأكثر إفساداً فيها من حبِّ الجاه والمال في دين المرء المسلم» [أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وقال: «جائعان» مكان «ضاريان»، ولم يقولا: «في زريبة»، وقالا: «الشرف» بدل «الجاه». قال الترمذي: حسن صحيح، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد رضي الله عنه «ما ذئبان ضاريان في زريبة غنم...» الحديث، وللبزار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ضاريان جائعان» وإسناد الطبراني فيهما ضعيف]، ولا ينقلع حبُّ الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس، والهرب من مخالطتهم، وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم.

فليكن فكر العالم في التفطُّن لخفايا هذه الصفات من قلبه، وفي استنباط طريق الخلاص منها، وهذه وظيفة العالم المتقي؛ فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكُّرنا فيما يقوي

إيماننا بيوم الحساب، إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً: إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار، فإن من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه، وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام، وبترك المعاصي، ونحن منهمكون فيها، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات، ونحن مقصرون في الفرائض منها، فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها، ويقال: لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أحقَّ وأولى باجتنابه منا، فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا، فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا، ويوفِّقنا للتوبة قبل أن يتوفانا، إنه الكريم اللطيف بنا، المنعم علينا.

فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم، وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته، والتنعم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات، والاتصاف بجميع المنجيات، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدراً مقطوعاً، وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف، لا يثبت ولا يدوم، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه، ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى، فتنغِّص عليه لذة المشاهدة، ولا طريق له في كمال التنعُّم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه، وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات، وهي مؤذيات ومشوشات، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات؛ فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى.

القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه. وفيه مقامان:

المقام الأعلى: الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه، وهذا مما مُنع منه حيث قيل: تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله؛ وذلك لأن العقول تتحير فيه، فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون، ثم لا يطيقون دوام النظر، بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس، فإنه لا يطيقه البتة، بل يختفي نهاراً، وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض، وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس، فإنه يقدر على

النظر إليها، ولا يطيق دوامه، ويخشى على بصره لو أدام النظر، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر، وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل، فالصواب إذن أن لا يتعرَّض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته، فإن أكثر العقول لا تحتمله، بل القدر اليسير الذي صرَّح به بعض العلماء، وهو أن الله تعالى مقدَّس عن المكان، ومنزَّه عن الأقطار والجهات، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه، قد حيَّر عقول أقوام حتى أنكروه، إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته، بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا، إذ قيل لهم: إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو، وأن يكون جسماً مشخصاً له مقدار وحجم، فأنكروا هذا، وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله، حتى قال بعض الحمقى من العوام: إن هذا وصف بطيخ هندي، لا وصف الإله، لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء، وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه، فلا يستعظم إلا نفسه، فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه؛ نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره، وبين يديه غلمان يمتثلون أمره، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة، بل لو كان للذباب عقل، وقيل له: ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران، لأنكر ذلك، وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني، أفيكون مقصوص الجناح، أو يكون زمناً لا يقدر على الطيران، أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها، وهو خالقي ومصوري؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار؛ ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني، ولكن أخبرهم عني بما يفهمون.

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً من هذا الوجه، اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا نتعرض لمجاري الفكر فيه، لكنا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله، ومجاري قدره، وعجائب صنعه، وبدائع أمره في خلقه؛ فإنها تدلُّ على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه، وتدلُّ على كمال علمه وحكمته، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته، فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته، كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس، ونستدلُّ بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى

نور القمر وسائر الكواكب؛ لأن الأرض من آثار نور الشمس، والنظر في الآثار يدلُّ على المؤثر دلالة ما، وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر؛ وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى، ونور من أنوار ذاته، بل لا ظلمة أشدَّ من العدم، ولا نور أظهر من الوجود، ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس، إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه، ويمكن النظر إليها، فيكون الماء واسطة يغض قليلاً من نور الشمس، حتى يطاق النظر إليها، فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل، ولا نبهر بأنوار الذات، بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال، فهذا سرُّ قوله صلى الله عليه وسلم: «تفكَّروا في خلق الله، ولا تتفكَّروا في ذات الله تعالى» [أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصحَّ منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال: هذا إسناد فيه نظر. قلت: فيه الوازع بن نافع متروك].

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٤ / ص ٤٢٠-٤٣٢) (٦/٢٧٧-٣٠١)

٥- بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى، وفيه مجموع العظام في بدن الإنسان:

اعلم أن كلَّ ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكلُّ ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن، لأنه لو كان البحر مداداً لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره، ولكنا نشير إلى جمل منه، ليكون ذلك كالمثال لما عداه، فنقول:

الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يُعرف أصلها، فلا يمكننا التفكر فيها، وكم من الموجودات التي لا نعلمها، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وقال: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]؛ وإلى ما يعرف أصلها وجملتها، ولا

يعرف تفصيلها، فيمكننا أن نتفكَّر في تفصيلها، وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحسِّ البصر، وإلى ما لا ندركه بالبصر؛ أما الذي لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك، ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض، فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام، وهي المدركات بحس البصر، وذلك هو السماوات السبع والأرض وما بينهما، فالسماوات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بين السماء والأرض ـ وهو الجو ـ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها.

فهذه هي الأجناس المشاهدة من السماوات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسام، ويتشعَّب كل قسم إلى أصناف، ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك مجال الفكر، فلا تتحرك ذرة في السماوات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها، وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية، ودالٌّ على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه، وقد ورد القرآن بالحثِّ على التفكر في هذه الآيات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الروم: ٢٠]، وأمثال ذلك كثير من أول القرآن إلى آخره، فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات.

فمن آياته: الإنسان المخلوق من النطفة، وأقرب شيء إليك نفسك، وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره، وأنت غافل عنه، فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبُّر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧ـ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال

تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة: ٣٧-٣٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٢]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ...﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] الآية، فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه، ويترك التفكر في معناه، فانظر الآن إلى النطفة، وهي قطرة من الماء قذرة، لو تركت ساعة ليضر بها الهواء فسدت وأنتنت، كيف أخرجها ربُّ الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى، وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم؛ ثم كيف خلق المولود من النطفة، وسقاه بماء الحيض، وغذاه حتى نما وربا وكبر، وكيف جعل النطفة، وهي بيضاء مشرقة، علقة حمراء؛ ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة، وهي متساوية متشابهة، إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم؛ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاءَ الظاهرة، فدور الرأس وشقَّ السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ؛ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع، وقسم الأصابع بالأنامل؛ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة، من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص، ومقدار مخصوص، لعمل مخصوص؛ ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر، فركب العين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة، لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الأعمار؛ فانظر الآن إلى العظام، وهي أجسام صلبة قوية، كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة، فمنه صغير وكبير، وطويل ومستدير، ومجوف ومصمت، وعريض ودقيق؛ ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض

أعضائه، مفتقراً للتردد في حاجاته، لم يجعل عظمه عظماً واحداً، بل عظاماً كثيرة، بينها مفاصل، حتى تتيسر بها الحركة، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه، وفي الآخر حفراً غائصة فيه، موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك؛ ثم انظر كيف خلق عظام الرأس، وكيف جمعها وركبها، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور، فألَّف بعضها إلى بعض، بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه، فمنها ستة تخص القحف، وأربعة عشر للحي الأعلى، واثنان للحي الأسفل، والبقية هي الأسنان، بعضها عريضة تصلح للطحن، وبعضها حادة تصلح للقطع، وهي الأنياب والأضراس والثنايا؛ ثم جعل الرقبة مركباً للرأس، وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات، لينطبق بعضها على بعض، ويطول ذكر وجه الحكمة فيها؛ ثم ركب الرقبة على الظهر، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة، فيتصل به من أسفله عظم العصعص، وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر، وعظام الكتف، وعظام اليدين، وعظام العانة، وعظام العجز، وعظام الفخذين والساقين، وأصابع الرجلين، فلا نطول بذكر عدد ذلك؛ **ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مئتا عظم وثمانية وأربعون عظماً، سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل**؛ فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة.

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون؛ إنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها، أنه كيف قدرها ودبرها، وخالف بين أشكالها وأقدارها، وخصَّصها بهذا العدد المخصوص، لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه، ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها، وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوِّرها فشتان بين النظرين.

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام، وهو العضلات، فخلق في بدن الإنسان خمس مئة عضلة، وتسعاً وعشرين عضلة، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها، فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها، لو نقصت واحدة من جملتها اختلَّ أمر العين، وهكذا لكلِّ عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص، وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين، وعددها ومنابتها وانشعاباتها، أعجب من هذا كله، وشرحه يطول، فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء، ثم في آحاد الأعضاء، ثم في جملة البدن، فكلُّ ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن، وعجائب المعاني، والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم. فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه، وإلى بدنه وصفاته، فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب.

وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها، وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها، واجتماع بعضها وتفرق بعضها، واختلاف صورها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا تظننَّ أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم، بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩].

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً، وما صارت إليه ثانياً، وتأمَّل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً، أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه، فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوَّر على حائط تأنق النقاش في تصويرها، حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، وقال الناظر إليها: كأنه إنسان، عظم تعجُّبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته، وعظم في قلبك محله، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد، وبالحائط وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل

النقاش ولا خلقه، بل هو من خلق غيره، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه، وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب، ثم أخرجها منها وشكَّلها فأحسن تشكيلها، وقدَّرها فأحسن تقديرها وتصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة، فأحكم العظام في أرجائها، وحسن أشكال أعضائها، وزين ظاهرها وباطنها، ورتب عروقها وأعصابها، وجعلها مجرى لغذائها، ليكون ذلك سبب بقائها، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة، وخلق لها الظهر أساساً لبدنها، والبطن حاوياً لآلات غذائها، والرأس جامعاً لحواسها، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السماوات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها، فهو ينظر إليها.

ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مراً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها، وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها، ولتحس بدبيب الهوام إليها، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه، فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم. ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم، ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه، وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومعرباً عما في القلب، وزيَّن الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع، فأحكم أصولها، وحدَّد رؤوسها، وبيَّض لونها، ورتب صفوفها، متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم، وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه، وليتم بها حروف الكلام.

وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت، وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف، ليتسع بها طريق النطق بكثرتها، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة، وصلابة الجوهر ورخاوته، والطول والقصر، حتى اختلفت بسببها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة.

ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ، وزين الوجه باللحية والحاجبين، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل، وزين العينين بالأهداب.

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخَّر كلَّ واحد لفعل مخصوص، فسخَّر المعدة لنضج الغذاء، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها، والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها، والكلية تخدمها بجذب المائية عنها، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها، ثم تخرجه في طريق الإحليل، والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن، ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد، وعرض الكف، وقسم الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع؛ ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه، من بعد الإبهام عن الأربع، وتفاوت الأربع في الطول، وترتيبها في صف واحد، لم يقدروا عليه؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد، وإن جمعها كانت له آلة للضرب، وإن ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له.

ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل، وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة؛ فالظفر الذي هو أخسُّ الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة، لكان أعجز الخلق وأضعفهم، ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه؛ ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل.

ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم، في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً، ولا يرى المصور ولا آلته، فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه؟! فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه.

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته، فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر،

كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق، وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه؛ ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي؛ ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف، واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً؛ وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي؛ ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً، حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل؛ ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع؛ ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخَّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين، لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن، فيستغنى عن السن، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف، ويحتاج إلى طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن، فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة، ثم حنَّن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه، فلو لم يسلط الله الرحمة على قلبيهما، لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه.

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً، حتى بلغ وتكامل، فصار مراهقا، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، إما كفوراً أو شكوراً، مطيعاً أو عاصياً، مؤمناً أو كافراً، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ١-٣]؛ فانظر إلى اللطف والكرم، ثم إلى القدرة والحكمة، تبهرك عجائب الحضرة الربانية؛ والعجب كل العجب ممن يرى خطاً حسناً، أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط، وأنه كيف نقشه وخطه، وكيف اقتدر عليه، ولا يزال يستعظمه في نفسه، ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته، ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره، ثم يغفل عن صانعه ومصوِّره، فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته، فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك، وأجلى شاهد على عظمة خالقك، وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك، ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب

فتقاتل، والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين، ويحشر في زمرة النبيين والصديقين، مقرباً من حضرة رب العالمين، وليست هذه المنزلة للبهائم، ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم، فإنه شرٌّ من البهائم بكثير، إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خلق الله له القدرة، ثم عطَّلها وكفر نعمة الله فيها، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك، فتفكَّر في الأرض التي هي مقرُّك، ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السماوات.

أما الأرض؛ فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً مهاداً، وسلك فيها سبلاً فجاجاً، وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها، وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٧ـ٤٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها، فظهرها مقر للأحياء، وبطنها مرقد للأموات، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: ٢٥ـ٢٦]، فانظر إلى الأرض وهي ميتة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزَّت وربت واخضرَّت وأنبتت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات؛ ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصمِّ الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها، ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً، وجعل به كل شيء حي، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى، مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأراييح، يفضل بعضها على بعض في الأكل، تسقى بماء واحد، وتخرج من أرض واحدة. فإن قلت: إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها؛ فمتى كان في النواة نخلة مطوقة لعناقيد الرطب؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة.

ثم انظر إلى أرض البوادي، وفتش ظاهرها وباطنها، فتراها تراباً متشابهاً، فإذا أنزل عليها الماء اهتزَّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ألواناً مختلفة، ونباتاً متشابهاً وغير متشابه، لكلٍّ واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه، وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة، فهذا النبات يغذي وهذا يقوي، وهذا يحيي وهذا يقتل، وهذا يبرد وهذا يسخن، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق، وهذا يستحيل إلى الصفراء، وهذا يقمع البلغم والسوداء، وهذا يستحيل إليهما، وهذا يصفي الدم، وهذا يستحيل دماً، وهذا يفرح وهذا ينوم، وهذا يقوي وهذا يضعف، فلم تنبت من الأرض ورقة ولا نبتة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها، وكلٌّ واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص، فالنخل تؤبر، والكرم يكسح، والزرع ينقَّى منه الحشيش والدغل، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض، وبعضه بغرس الأغصان، وبعضه يركب في الشجر، ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك، فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلُّك على طريق الفكر، فهذه عجائب النبات.

ومن آياته: الجواهر المودعة تحت الجبال، والمعادن الحاصلة من الأرض، ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل، وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها، واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها؛ ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها، وأقلُّها الملح، ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام، ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها؛ فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها، بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر، فيستحيل ملحا مالحاً محرقاً لا يمكن تناول مثقال منه، ليكون ذلك تطييباً لطعامك إذا أكلته، فيهنأ عيشك؛ وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس، ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي،

وعلى الوجه الذي ينبغي، وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

ومن آياته: أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشى على أربع، وعلى عشر، وعلى مئة، كما يشاهد في بعض الحشرات؛ ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع؛ فانظر إلى طيور الجو، وإلى وحوش البر، والبهائم الأهلية، تر فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها، وقدرة مقدِّرها، وحكمة مصوِّرها، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت، وهي من صغار الحيوانات، في بنائها بيتها، وفي جمعها غذاءها، وفي إلفها لزوجها، وفي ادخارها لنفسها، وفي حذقها في هندسة بيتها، وفي هدايتها إلى حاجاتها، لم نقدر على ذلك؛ فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر، فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه، حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه؛ ثم يبتدئ ويلقى اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً، ويجعل بعد ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً، حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة، فيضع اللحمة على السدى، ويضيف بعضه إلى بعض، ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى، ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب، ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط، ووصل بين طرفي الزاوية بخيط، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر، وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير، فإذا طارت رمى بنفسه إليها فأخذها، ولف خيطه على رجليها وأحكمه، ثم أكلها.

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى، أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه، أو تكوَّن بنفسه، أو كوَّنه آدمي أو علَّمه، أو لا هادي له ولا معلِّم؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز، بل الفيل العظيم شخصه، الظاهرة قوته، عاجز عن أمر نفسه، فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته

وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم، وخالقه القادر العليم؟ فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبِّر، وجلاله، وكمال قدرته وحكمته، ما تتحير فيه الألباب والعقول، فضلاً عن سائر الحيوانات؛ وهذا الباب أيضاً لا حصر له؛ فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجُّب القلوب منها لأُنسها بكثرة المشاهدة؛ نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولو دوداً تجدَّد تعجُّبه وقال: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب الحيوانات، وليس يتعجب من نفسه، بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها، ونظر إلى أشكالها وصورها، ثم إلى منافعها وفوائدها، من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه، وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم، وآنية لأشربتهم، وأوعية لأغذيتهم، وصواناً لأقدامهم، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب، وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة، لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصوِّرها، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها، سابق على خلقه إياها، فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر، ومن غير استعانة بوزير أو مشير، فهو العليم الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته، والاعتراف بربوبيته، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته؛ فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه؟ بل هو كما أثنى على نفسه، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته، فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنِّه ورأفته.

ومن آياته: البحار العميقة، المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء، بالإضافة إلى الماء، كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مستورة بالماء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض» [لم أجد له أصلاً]، فانسب إصطبلاً إلى جميع الأرض، واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله، وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها، فتأمل الآن عجائب البحر، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن

أنها جزيرة، فينزل الركاب عليها فربما تحسَّ بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك، ويعلم أنها حيوان، وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر، وقد ذكرت أوصافها في مجلدات، وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه؛ ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفه تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان من صُمِّ الصخور تحت الماء، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر؛ ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه؛ ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن، ثم عرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها، ولا تستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات.

وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر، وهو كيفية قطره الماء، وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد، لطيف التركيب، سريع القبول للتقطيع، كأنه منفصل مسخر للتصرف، قابل للانفصال والاتصال، به حياة كلِّ ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها؛ فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر، ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها؛ فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار، ففيها متسع للفكر ومجال، وكلُّ ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها، مفصحة عن جلال بارئها، معربة عن كمال حكمته فيها، منادية أرباب القلوب بنغماتها، قائلة لكل ذي لبٍّ: أما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي، واختلاف حالاتي، وكثرة فوائدي، أتظن أني كونت نفسي أو خلقني أحد من جنسي؟ أوما تستحيي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف، فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلَهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته، ولا حركته، ولا اتصاله بمحل الخط، ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه؟

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب، لا للذين هم عن السمع معزولون: توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض، في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي، فينفش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدي وشفتي، فترى التقويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدريج، ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها، ولا داخل الرحم ولا خارجه، ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم، فما هذا النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة، لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته؛ فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعمُّ ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب، ولا تفهم بها أن الذي صور ونقش وقدر لا نظير له، ولا يساويه نقاش ولا مصور، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع، فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين، فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك، فإنه أعجب من كل عجب، فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح، ومنعك من التبيُّن مع هذا البيان، جدير بأن تتعجب منه، فسبحان من هدى وأضل، وأغوى وأرشد، وأشقى وأسعد، وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه، فله الخلق والأمر، والامتنان والفضل، واللطف والقهر، لا رادَّ لحكمه، ولا معقب لقضائه.

ومن آياته: الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض، لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه، ولا يرى بالعين شخصه، وجملته مثل البحر الواحد، والطيور محلقة في جو السماء ومستبقة فيه بأجنحتها، كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح، كما تضطرب أمواج البحر، فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابة، فإن شاء جعله بشراً بين يدي رحمته، كما قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات، فتستعد للنماء، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٩-٢٠].

ثم انظر إلى لطف الهواء، ثم شدته وقوته، مهما ضغط في الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه، فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته، وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء، لأن الهواء ينقبض عن الغوص في الماء، فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف، كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي في البئر، فالسفينة بمقعرها تتشبَّث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والغوص في الماء؛ فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد، وعقدة تشد.

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق، فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، وهذا هو الذي بينهما، وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك، وتسمع الرعد بأذنك، فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة، فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى، فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها، فغمض عينك الظاهرة، وانظر ببصيرتك الباطنة، لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها، وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه، إذ لا مطمع في استقصائه.

فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل، وممسك له في جوِّ السماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القطرات، كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى، وعلى الشكل الذي شاءه، فترى السحاب يرشُّ الماء على الأرض، ويرسله قطرات متفاصلة، لا تدرك قطرة منها قطرة، ولا تتصل واحدة بأخرى، بل تنزل كلُّ واحدة في الطريق الذي رسم لها، لا تعدل عنه، فلا يتقدم المتأخر، ولا يتأخر المتقدم، حتى

يصيب الأرض قطرة قطرة، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة، أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة، لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها؛ ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض، ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب، ومكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية، التي في ناحية الجبل الفلاني، تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني؛ هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف، وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى، كل ذلك فضل من الجبار القادر، وقهر من الخلاق القاهر، ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته، ورجم الظنون بذكر سببه وعلته، فيقول الجاهل المغرور: إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه، وإنما هذا سبب نزوله، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له، ويفرح بها؛ ولو قيل له: ما معنى الطبع؟ وما الذي خلقه؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل؟ وما الذي رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد، حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق، فيغذي كل جزء من كل ورقة، ويجري إليها في تجاويف عروق شعرية صغار، يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار، فكأن الكبير نهر، وما انشعب عنه جداول، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة، تخرج عن إدراك البصر، حتى تنبسط في جميع عرض الورقة، فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة، ليغذيها وينميها ويزينها، وتبقى طراوتها ونضارتها، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه؟ فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل، فكيف تحرك إلى فوق؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب، فما الذي سخر ذلك الجاذب؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السماوات والأرض، وجبار الملك والملكوت، فلم لا يحال عليه من أول الأمر؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل.

ومن آياته: ملكوت السموات، وما فيها من الكواكب، وهو الأمر كله، ومن أدرك

الكل، وفاته عجائب السموات، فقد فاته الكل تحقيقاً؛ فالأرض والبحار والهواء وكلُّ جسم سوى السماوات، بالإضافة إلى السموات، قطرة في بحر وأصغر؛ ثم انظر كيف عظم الله أمر السماوات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها! كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشمس: ١-٢]، وكقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التكوير: ١٥-١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦]، فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون، وما أقسم الله بها، فما ظنك بما أقسم الله تعالى به، وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه، فقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وأثنى على المفكرين فيه فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته» [أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «ولم يتفكر فيها» وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حبة، ضعيف]، أي تجاوزها من غير فكر! وذمَّ المعرضين عنها فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء، وهي متغيرات على القرب، والسماوات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سماه الله تعالى محفوظاً فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨]؛ فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت، ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمدَّ البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها، فإن البهائم تشاركك في هذا النظر، فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت، والله تعالى عالم

الغيب والشهادة، وجبار الملك والملكوت، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

فأجِل أيها العاقل فكرك في الملكوت، فعسى يفتح لك أبواب السماء، فتجول بقلبك في أقطارها، إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: رأى قلبي ربي؛ وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى، وأدنى شيء إليك نفسك، ثم الأرض التي هي مقرك، ثم الهواء المكتنف لك، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض، ثم السماوات السبع بكواكبها، ثم الكرسي، ثم العرش، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السماوات، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما، فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة، وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعي معرفة ربك، وتقول: قد عرفته وعرفت خلقه، ففي ماذا أتفكر؟ إلى ماذا أتطلع؟ فارفع الآن رأسك إلى السماء، وانظر فيها وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها، ودؤوبها في الحركة على الدوام، من غير فتور في حركتها، ومن غير تغير في سيرها، بل تجري جميعاً في منازل مرتبة، بحساب مقدر، لا يزيد ولا ينقص، إلى أن يطويها الله تعالى طي السجل للكتاب؛ وتدبَّر عدد كواكبها وكثرتها، واختلاف ألوانها، فبعضها يميل إلى الحمرة، وبعضها إلى البياض، وبعضها إلى اللون الرصاصي؛ ثم انظر كيفية أشكالها، فبعضها على صورة العقرب، وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان، وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء؛ ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر، سخرها له خالقها، ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار، ولم تعرف المواقيت، ولأطبق الظلام على الدوام، أو الضياء على الدوام، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة؛ فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباساً، والنوم سباتاً، والنهار معاشاً، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص؛ وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن

وسط السماء، حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان؛ وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر.

واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة في خلقه، ثم في مقداره، ثم في شكله، ثم في لونه، ثم في وضعه من السماء، وقربه من وسط السماء وبعده، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده؛ وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة، بل حكم كثيرة، وأمر السماء أعظم، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء، لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه، وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني، بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مئة ونيفاً وستين مرة، وفي الأخبار ما يدل على عظمها [الحديث الدال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال: «في نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض»، وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «وكِّل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم، لولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقته»]؛ ثم الكواكب التي تراها أصغرها مثل الأرض ثماني مرات، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مئة وعشرين مرة مثل الأرض، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها، إذ للبعد صارت ترى صغاراً، ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٨]، وفي الأخبار: أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمس مئة عام [أخرجه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال: غريب؛ قال: ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا: ولم يسمع الحسن من أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصرة، عن أبي ذر رضي الله عنه، ورجاله ثقات، إلا أنه لا يعرف لأبي نصرة سماع من أبي ذر رضي الله عنه]، فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافاً، فانظر إلى كثرة الكواكب، ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها، وإلى عظمها، ثم انظر إلى سرعة حركتها، وأنت لا تحس بحركتها فضلاً عن أن تدرك سرعتها، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير

مقدار عرض كوكب، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير، وذلك الكوكب هو مثل الأرض مئة مرة وزيادة، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مئة مرة، وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه، وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته، إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «هل زالت الشمس؟» فقال: لا، نعم، فقال: «كيف تقول: لا، نعم»، فقال: من حين قلت: لا، إلى أن قلت: نعم، سارت الشمس مسيرة خمس مئة عام [لم أجد له أصلاً]؛ فانظر إلى عظم شخصها، ثم إلى خفة حركتها؛ ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها، حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها، فترى جميعها، فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها، بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها، ومن غير علاقة من فوقها، وكل العالم كبيت واحد، والسماء سقفه، فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوقاً بالصبغ مموهاً بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه، ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك، وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه، وإلى سقفه، وإلى هوائه، وإلى عجائب أمتعته، وغرائب حيواناته، وبدائع نقوشه، ثم لا تتحدث فيه، ولا تلتفت بقلبك إليه، فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه، بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت، ومع هذا فلا تنظر إليه ليس له سبب، إلا أنه بيت ربك، هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه، وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك، واشتغلت ببطنك وفرجك، ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك، وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ،ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة، فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات، وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مئة من معارفك، فينافقون بألسنتهم بين يديك، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك، وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك، وقد اشتغلت بهذا الغرور، وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السماوات والأرض، ثم غفلت عن التنعُّم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك، وما مثلك ومثل عقلك إلا مثل النملة تخرج من جحرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك، رفيع البنيان حصين

الأركان، مزين بالجواري والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها، فأما حال القصر والملك الذي في القصر، فهي بمعزل عنه وعن التفكُّر فيه، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره، وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه، وغفلت أيضاً عن سكانه، فأنت أيضاً غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سماواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك، ولا تعرف من ملائكة السماوات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك، نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت، وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه، ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط، فإنه مجال لا آخر له، ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضَّل الله تعالى علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم، وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما، ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحقَّ أن يسمى علماً، بل هو إلى أن يسمى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً أقرب؛ فسبحان من عرف عباده ما عرف، ثم خاطب جميعهم فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فهذا بيان معاقد الجمل التي تجوَّل فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى، وليس فيها فكر في ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى، كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم؛ وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه، فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة، وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً، حتى إن كل كلمة من كلماته، وكل بيت عجيب من أبيات شعره، يزيده محلاً من قلبك، يستدعي التعظيم له في نفسك؛ فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه، والنظر

والفكر فيه لا يتناهى أبداً، وإنما لكل عبد منها بقدر ما رزق، فلنقتصر على ما ذكرناه، ولنضف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر، فإنا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط، وكلُّ ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه، ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته؛ وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه، استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، واهتدى به؛ ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب، فقد شقي وارتدى، فنعوذ بالله من الضلال، ونسأله أن يجنِّبنا مزلة أقدام الجهال، بمنِّه وكرمه وفضله وجوده ورحمته. تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات، والحمد لله وحده، وصلواته على محمد وآله وسلامه.

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٤ / ص ٤٣٨) (٦/٣١٤)

٦ـ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً، وخط وسطه...

قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذا المرء، وهذه الحتوف حوله شوارع إليه، والهرم وراء الحتوف، والأمل وراء الهرم، فهو يؤمل، وهذه الحتوف شوارع إليه، فأيها أمر به أخذه، فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم، وهو ينتظر الأمل. قال عبد الله رضي الله عنه: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً، وخط وسطه خطاً، وخط خطوطاً إلى جنب الخط، وخط خطاً خارجاً، وقال: «أتدرون ما هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا الإنسان ـ للخط الذي في الوسط ـ وهذا الأجل محيط به، وهذه الأعراض ـ للخطوط التي حوله ـ تنهشه، إن أخطأه هذا نهشه هذا، وذاك الأمل ـ يعني الخط الخارج» [رواه البخاري].

** ** **

إحياء علوم الدين - (ج ٤ / ص ٤٤٠) (٦/٣١٨)

٧ـ كتاب محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف:

وقال بعضهم: رأيت كتاباً من محمد بن يوسف، إلى عبد الرحمن بن يوسف:

سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني أحذرك متحوَّلك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها، فيأتيك منكر ونكير، فيقعدانك وينتهرانك، فإن يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع؛ ثم تبلغك صيحة الحشر، ونفخ الصور، وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق، وخلاء الأرض من أهلها، والسماوات من سكانها، فباحت الأسرار، وأسعرت النار، ووضعت الموازين، وجيء بالنبيين والشهداء، وقضي بينهم بالحق، وقيل: الحمد لله رب العالمين؛ فكم من مفتضح ومستور؛ وكم من هالك وناج؛ وكم من معذَّب ومرحوم؛ فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ! ففي هذا ما هدم اللذات، وأسلى عن الشهوات، وقصر عن الأمل، وأيقظ النائمين، وحذَّر الغافلين، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين، فإنما نحن به وله؛ والسلام.

** ** **

ثبت المحتويات

** ** **